الفصل الرابع

التوراة في ضوء المكتشفات الأثارية

1 ـ التوراة كمرجع في بحث تاريخ فلسطين القديم:

لقد كانت التوراة قبل الاكتشافات الآثارية قبل قرن أو يزيد، باستثناء الكتابات اليونانية والرومانية المتأخرة، المصدر الأساسى أو الوحيد تقريبا، الذي يرجع إليه الباحثون في تاريخ فلسطين القديم ودور اليهود فيه، باعتبارها أقدم كتابة في تاريخ البشرية فضلا عن قدسيتها، وكان كل ما ورد في التوراة من عرض للأحداث والوقائع لابد من تقبله كحقائق دون نقاش أو جدال لكونه من المسائل المقدسة من جهة ولعدم أى ثبت قديم ينافسه في هذا الميدان من جهة أخرى.

والسؤال الذي يفرض نفسه في تحقيق منزلة التوراة كمرجع تاريخى موثوق به هو: " أين، ومتى، وكيف، وبأية لغة ظهرت التوراة، وما هى صلة التوراة بالثقافات القديمة التي سبقتها؟.. " إن المعروف عن أسفار التوراة ومثلها التلمود أنه قام بجمعها وتدوينها عدد من الكتبة والأحبار بلغات وأقلام مختلفة خلال فترات متقطعة وفى مواطن متعددة استغرقت مائتين وألف عام تقريبا، أى من القرن السابع قبل الميلاد حتى القرن الخامس بعد الميلاد، ودون معظمها أثناء الأسر في بلاد بابل في القرن السادس قبل الميلاد، وقد أعيد تنقيح أكثرها في فلسطين بعد السبى، أى في العهد الأخمينى (539 - 331 ق.م)، ثم دون بعض الأسفار في العهد السلوقى البطلمى. ويعتقد أن سفر عاموس كان أقدم ما دون من أسفار التوراة وكان ذلك في حوالى القرن السابع قبل الميلاد على رأى البعض، في حين أن آخر ما دون من مجموعة الشرائع اليهودية التلمود الذي اكتسب صيغته النهائية في أوائل القرن السادس بعد الميلاد [1].

ويلقى العلامة وول ديورانت نفس السؤال الذي عرضناه ويجيب عليه في فقرة واحدة حسب تعبيره، فقال ما هذا نصه: " كيف كتبت أسفار التوراة؟ ومتى كتبت؟ وأين كتبت؟ ذلك سؤال برئ لا ضير منه ولكنه سؤال كتب فيه خمسون ألف مجلد، ويجب أن نفرغ منه في فقرة واحدة نتركه بعدها من غير جواب. إن العلماء مجمعون على أن أقدم ما كتب من أسفار التوراة هما القصتان المتشابهتان المنفصلة إحداهما عن الأخرى في سفر التكوين، تتحدث إحداهما عن الخالق باسم " يهوه " على حين تتحدث الأخرى باسم إلوهيم ويعتقد هؤلاء العلماء أن القصص

(1) انظر ما تقدم عن تاريخ التوراة في الفصل الثالث.

الخاصة بيهوه كتب في يهوذا، وأن القصص الخاصة بألوهيم كتبت في أفرايم، وأن هذه وتلك قد امتزجتا في قصة واحدة بعد سقوط السامرة. وفى هذه الشرائع عنصر ثالث يعرف بالتثنية أكبر الظن أن كاتبه أو كتابه هو أو هم غير كتاب الأسفار السالفة الذكر، وثمة عنصر رابع يتألف من فصول أضافها الكهنة فيما بعد. والرأى الغالب هو أن هذه الفصول تكون الجزء الأكبر من سفر الشريعة الذي أذاعه عزرا، ويبدو أن هذه الأجزاء الأربعة قد اتخذت صورتها الحاضرة حوالى عام 300 ق.م [1].

ومن الواضح أن أسفار التوراة ومدونات التلمود لا يمكن اعتبارها مرجعا أصيلا يعمد عليه في بحث تاريخ فلسطين القديم لما خالطها من نزعات دينية وعنصرية وسياسية عبر فترة تدوينها الطويلة، فضلا عن أن التوراة لم تبحث الأحداث التاريخية الخاصة بفترة ما قبل عصر إبراهيم الخليل إلا عرضا بقدر ما لموضوع اليهود من صلة بها على الشكل الذي اختاره مدونوها.

2 ـ مدونو التوراة يتعمدون إهمال التسلسل الزمنى:

والتوراة عند عرضها للحوادث التاريخية، لم تحدد التسلسل الزمنى، ولم تنسق الحوادث بحسب أزمانها وأدوارها، وذلك لكى يلتبس الأمر على القارئ فيعجز عن تحديد مراحل الأحداث التاريخية وتتبع زمن كل منها، والأرجح أن مدونى التوراة تعمدوا ذلك لترك المجال مفتوحا لإرجاع تاريخهم، وهم من بقايا بيت يهوذا، إلى أزمنة قديمة لم تكن لها أية صلة بها، فخلطوا بين أدوار تفصل بينها عدة قرون، إذ ربطوا أحداثا تعود إلى عصور متباعدة وعدوها عصرا واحدا. ومن ذلك مثلا، أنهم ذكروا في توراتهم أن إبراهيم الخليل عليه السلام ذهب على أبيمالك [2] ملك الفلسطينيين في جرار وتغرب في أرضهم، ومثل ذلك ورد عن ابنه إسحاق وصلته بإبيمالك المذكور [3]، هذا في حين أن الدراسات المبنية على الاكتشافات الآثارية الأخيرة تشير على وجه التأكيد إلى أن عهد إبراهيم الخليل كان يقع في القرن التاسع عشر قبل الميلاد بحسب أوثق تقديرات العلماء لعهده، بينما يرجع عصر الفلسطينيين الذين سميت أرض فلسطين باسمهم

(1) " قصة الحضارة "، الترجمة العربية، م1، ص 367.
(2) ويغلب الظن أن اصطلاح " أبيمالك " كان لقبا لملوك الفلسطينيين (قاموس الكتاب المقدس، الطبعة الجديدة لسنة 971، ص 23).
(3) (تك، 20: 1 - 18، 21؛ 21 - 34، 26: 1 - 11).

إلى القرن الثانى عشر قبل الميلاد [1]، وهذا ما يجعل فاصلا بين عهد إبراهيم الخليل وعهد الفلسطينيين يمتد حوالى سبعة قرون من الزمن، وبذلك تكون مدونات التوراة قد ربطت العصرين وعدتهما عصرا واحدا. ومثل ذلك فعلت بربط عصر إبراهيم الخليل بعصر اليهود على الرغم من وجود فاصل يفصل بين العصرين يمتد أكثر من ألف عام عبر الزمن [2].

وكذلك تتحدث التوراة عن أور الكلدانيين في عهد إبراهيم الخليل في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، في حين أن الكلدانيين لم يظهروا إلا بعد سقوط نينوى في سنة 612 ق.م بعد ألف وثلاثمائة عام.

والغاية الأساسية التي كان يرمى إليها مدونو التوراة من وراء ربط اليهود بعصر إبراهيم الخليل وتأكيدها ذلك مبررا في سفر التكوين هى إرجاع تاريخ بقايا بيت يهوذا وعزو نسبهم إلى إبراهيم الخليل مباشرة، واعتبار إبراهيم الخليل الذي كانت قد انتشرت شهرته في الآفاق في تلك الأزمان كنبى عظيم، رئيسهم الأعلى قبل أن يظهروا إلى عالم الوجود. وهذا يفسر لنا كيفية شيوع التقليد الذي تؤكده الكتابات اليهودية، قديما وحديثا، أن إبراهيم الخليل غادر العراق ومعه اليهود إلى فلسطين في حين أن اليهود ظهروا بعد عهد موسى أى بعد إبراهيم الخليل بأكثر من ألف عام، وقد قبلت الأجيال ذلك من غير تمحيص للتسلسل الزمنى وملاحظة العصور بحسب تواريخها.

ويلاحظ أن أكثر الكتاب العرب بل وحتى جميعهم يقلدون التوراة بإهمال التمييز بين عصر وآخر عندما يبحثون في تاريخ فلسطين القديم، فيأخذون بأسلوب التوراة في عرض الحوادث التاريخية، وآخر ما مر علىّ من كتب تبحث في تاريخ فلسطين كتيب طبعته على ما يظهر إدارة الجامعة في لندن باللغة الإنجليزية بعنوان " غرباء في فلسطين " وكنت أتصور من العنوان وقبل أن أتصفح الكتاب أن المؤلف يريد أن يبرهن على ما جاء في العنوان أى أن اليهود كانوا غرباء في فلسطين ولا صلة تاريخية بها وأنهم طارئون عليها كما هو الواقع التاريخى فعلا، فإذا بالكاتب يستعرض تاريخ اليهود في فلسطين بنقل الحوادث كما وردت في التوراة من غير تمييز بين عصر وآخر وعند ذكره تاريخا واحدا من تاريخ

(1) انظر ما تقدم عن هجرة الفلسطينيين إلى فلسطين في الفصل الأول.
(2) انظر ما يلى عن عصر إبراهيم الخليل في الفصل الخامس.

فلسطين القديم وقع في خطأ لا يغتفر على المؤرخ الحقيقى، وهو جعل تاريخ غزو فلسطين على عهد يشوع سنة 700 قبل الميلاد في حين أن التاريخ الحقيقى هو القرن الثالث عشر قبل الميلاد، أى قبل التاريخ المذكور بستة قرون (1).

والمفروض أن هذا الكتيب أعد لإظهار حق العرب في فلسطين في حين أنه لم يحقق إلا عكس المطلوب، فخدم كاتبه الدعاية الصهيونية من حيث لا يدرى، وذلك بقبوله كل ما ورد في التوراة كحقائق تاريخية مقبولة، وهذا هو الذي يريده الصهاينة بالضبط فجاء على لسان العرب أنفسهم.

وقد وقع الكتاب بمثل هذه الأخطاء نتيجة عدم ملاحظتهم تسلسل الأدوار حسب أزمانها، وخاصة زمن تكون اللغة العبرية بمعنى اليهودية وزمن تدوين التوراة، مما أدى بهم إلى اعتبار كل ما ورد في التوراة من أسماء الأشخاص أو الأماكن مثل إبرام ويعقوب ويوسف أورشليم وصهيون وإسرائيل وغيرها من الأسماء القديمة عبرية بمعنى يهودية، في حين أن هذه الأسماء كنعانية عربية الأصل كانت متداولة بين الكنعانيين وقد وردت في الكتابات الكنعانية والمصرية القديمة قبل ظهور اليهود وقبل تكون اللغة العبرية بمعنى اليهودية بعدة قرون، مع العلم أنه لا توجد لغة عبرية بمعنى يهودية خاصة باليهود فاللغة والحروف المسماة بالعبرية تكونت في عهد متأخر وهى مقتبسة من الأرامية.

3 ـ مدونو التوراة يتعمدون إقصاء الكنعانيين من الأسرة السامية:

ولقد تعمد مدونو التوراة أيضا إقصاء الكنعانيين والفينيقيين سكان فلسطين الأصليين من الدوحة السامية لعداء اليهود الشديد لهم فعدوهم من الكوشيين كما ورد ذلك في العهد القديم (2)، مع أنهم كانوا يعلمون حق العلم أنهم هم الساميون العرب الأصلاء أهل البلاد، في حين أنهم حشروا في الأسرة السامية شعوبا لا يعدها العلم الحديث من جماعة الساميين مثل العيلاميين واللوديين (3). وقد صب كتبة التوراة جام حقدهم على الكنعانيين فنعتوا كنعان بالمعلون " وعبد العبيد يكون لإخوته

(1) “Strangers in Palestine”, London, P. 83.

(2) (تك، 10: 6).

(3) (تك، 10: 22).

وعبدا ليافث " [1]، وكذلك اعتبرت التوراة الحيثيين من ذرية كنعان [2]، في حين أنهم من الأقوام الهندية الأوربية ومثل ذلك اعتبرت العموريين من صلب حام[3].

ويقول " بروكلمن " في ذلك " : إن العبرانيين (أى اليهود) كانوا قد تعمدوا إقصاء الكنعانيين من جدول أنساب سام، بسبب العداء الذي كان بينهم وبين الكنعانيين والذى يتمثل في قصص الحروب التي نشبت بين الطرفين ودونت أخبارها في أسفار التوراة، فحملهم عداؤهم لهم وحقدهم عليهم على التنصل منهم، وعلى التبرؤ من إلحاق نسبهم بشجرة أنساب سام بن نوح ".

4 ـ التوراة في ضوء الاكتشافات الآثارية:

ولحسن الحظ في توافرت لدينا الآن ثروة من المعلومات الأصلية التي تركها الأقدمون الذين سبقوا عهد التوراة - وهو السومريون والكنعانيون والفينيقيون والبابليون والحيثيون، والأشوريون والمصريون، وقد عثر المنقبون على بعضها خلال القرن ونصف القرن الأخير وترجموها إلى اللغات الحديثة وأصبحت في متناول أيدى القراء والباحثين.

وهذه وصلت على ايدى المنقبين كما هى في الأصل وبلغاتها وحروفها الأصلية على عكس ما عهدناه في التوراة من تباعد في اللغة وفى العصر. ويقدر عدد هذه الوثائق الأصلية التي تناولت مختلف شئون الحياة في تلك الأزمان أكثر من نصف مليون قطعة عثر عليها بين أطلال مدن حضارات الشرق الأدنى القديمة بمختلف اللغات والحروف، ويعد العلماء هذه الاكتشافات أعظم إنجازات الإنسان في العصر الحديث: فقد كشفت لنا هذه المدونات عن كثير من الأمور الغامضة، إذ أمكن في ضوئها التمييز بين الحقائق الواقعة والأساطير الخيالية والتحريفات المتعمدة في التوراة، وقد تمكن علماء الآثار من تعيين تواريخ الحوادث من هذه المدونات بصورة مضبوطة خاصة ما يتعلق بالأدوار المتأخرة، وكذلك تشخيص أكثر مواقع المدن والأماكن التي ورد ذكرها في هذه المدونات وفى التوراة، مما جعل إمكانية عرض الأحداث التاريخية القديمة بحسب تسلسلها الزمنى وتوضيح علاقة الأقوام بعضها ببعض وتعيين أدوارها بشكلها الحقيقى بمقارنة الحوادث التي وردت في كل من المصدرين.

---

(1) (تك، 9: 25 - 27).
(2) (تك، 10: 15).
(3) (تك: 10: 5).

ومن أهم ما أوضحت لنا هذه الاكتشافات المكاسب العلمية الآتية:

1- تشجيع أكثر مواقع المدن والأماكن التي ورد ذكرها في هذه المدونات القديمة وفى كتابات التوراة.

2- تعيين تواريخ الحوادث بصورة مضبوطة بحسب تسلسلها الزمنى وتوضيح علاقة الأقوام بعضها ببعض وتعيين أدوارها، وخاصة هجرة الأقوام بوجه عام وتطور ثقافاتها ولغاتها.

3- تتبع أزمان الهجرات السامية من جزيرة العرب إلى فلسطين وإلى بلاد الهلال الخصيب قبل ظهور النبى موسى وشرح دور هذه الهجرات العربية في تطور وتقدم الحضارة السامية.

4- تعيين زمن الحوادث التاريخية الوارد ذكرها في التوراة بالقياس إلى الوقائع الحربية والسلالات الحاكمة في كل عصر من العصور بحسب تسلسها الزمنى.

5- توصل الخبراء إلى أن الكثير مما ورد في التوراة من قصص وأساطير وشرائع يرجع إلى أصل قديم وجد مثيله أو ما يشابهه في المدونات السومرية والأكدية والكنعانية والبابلية والأشورية والمصرية، مما يدل على أنه ليس لليهود أدب مبتكر أو ثقافة خاصة بهم.

6- توصل الخبراء إلى أن مواد عديدة في التوراة مأخوذة من شريعة حمورابى والشرائع القديمة الأخرى، وأن أكثر التراتيل والمزامير والتسابيح الدينية التي وردت في التوراة مقتبسة من الكنعانيين في " أوغاريث " (فينيقيا) ومن المصريين.

7- توصل الخبراء إلى أن معظم شرائع التوراة هى نفسها الشرائع التي كان يمارسها الكنعانيون والبابليون من قبل وقد اقتبسها اليهود منهم ومارسوها ثم أدخلوها في كتبهم المقدسة.

8- ثبوت كون اليهود غرباء دخلاء على فلسطين وأن كل ما يملكون من المقومات الثقافية ومن ضمنها اللغة وكتابهم المقدس مقتبس من الثقافة الكنعانية والأرامية وأنها من أصل سامى عربى، وأن الأسماء التاريخية الواردة في التوراة سواء كانت اسمها أشخاص أو أسماء أماكن من أصل كنعانى عربى ترجع إلى ما قبل ظهور اللغة العربية بأكثر من ألفى سنة.

9- ثبوت كون اليهود عاشوا في فلسطين وهم أقلية بين السكان الأصليين طيلة مدة مكوثهم فيها.

10- ثبوت عجز اليهود في أى دور من أدوار التاريخ عن إنشاء دولة مدنية زمنية تضم كل فلسطين، وأن دولتى داود وسليمان كانتا قائمتين في القرن العاشر قبل الميلاد على تراث كنعانى بحت قبل نشوء العبرية (اليهودية) بعدة قرون.

وتشير الدلائل على ان مدونى التوراة أخذوا عن القدماء نفس أسلوبهم في تدوين الحوادث ومن ذلك التشابه بين طريقة التوراة وبين الطريقة السومرية المتبعة في تقدير أعمار الأشخاص مما يؤيد اقتباس مدونى التوراة الطريقة السومرية ذاتها، فقد ورد ذكر أشخاص في التوراة قيل عنهم أنهم عاشوا ثمانمائة أو تسعمائة عام [1]، وهذه نفس الطريقة التي اتبعها السومريون الأوائل في تدوين مدد حكم ملوكهم، فمن جملة مدوناتهم أن ثمانية من ملوكهم حكموا قبل الطوفان (341200 سنة)، وفى جدول آخر يرتفع هذا الرقم إلى (456000 سنة)، وهذه الأرقام الخيالية في تدوين أعمال الأشخاص مازالت لغزا لم يتوصل علماء الآثار إلى حله حتى الآن، فيرى البعض أن احتساب هذه الحقب الطويلة للأعمار هى مجرد رمز للاعتقاد السائد بأن هناك عصرا ذهبيا دائم الازدهار كان يعمر فيه الملوك آلافا من السنين لما كانوا يتمتعون به من مقام الألوهية التي هى فوق الطبيعة البشرية.

ويرجح السير ليونارد وولى أن السومريين كانوا يؤرخون حكم الملوك بالآلاف من السنين إذ كانوا يعبرون عن أعمارهم بوحدة قياسية تدعى " سار " وهى حقبة أمدها 360 سنة [2]، وهناك رأى أن الأقوام الأولين كانوا يعدون كل شهر عاما فإذا قالوا ألفا ومائتى سنة فإنما يعنون مائة عام من أعوامنا [3]. وللمعرى أبيات بهذا المعنى حيث يقول:

وروا للمعمرين أمورا ::: لست أدرى ما هن في المشهور
أتراهم فيما تمضى من الأيا ::: م عدوا سنيهم بالشهور
كلما لاح للعيون هلال ::: كان عاما لديهمو في الدهور

(1) (تك، 5: 16 - 17).

(2) C.L. Woolley, "The Sumerians", 4th imp, 1930, P. 29.

(3) راجع الدكتور أحمد سوسة، " الرى والحضارة في وادى الرافدين "، ص 96.

وكـــذا ينبغـــي وإلا فـــإن الـــــ ::: ـــــعقل يـــثنى في حالـــة المبـــهور [1]

وقد خالف عالم الآثار إدوارد كييرا هذا الرأى، أى الرأى القائل بأن بضعة أيام كانت تعادل عند البابليين واليهود سنة فيعلق على ذلك بقوله: " فقد قدرت سنوات حكم بعض الملوك نصف الأسطوريين الأوائل بـ 72 ألف سنة وفى هذا نجد تشابها مع أعمار الكهنة اليهود الطويلة، ولا نزال نأمل الحصول على شئ من دراسة التدوينات وأرقام السنين العالية لكلا المصدرين. وأنه لضرب من الجنون أن نحاول التغلب على الصعوبة التي تثيرها هذه الأرقام الضخمة عندما نتصور أن كل سنة لهؤلاء الكهنة الأقدمين كانت أقصر من سنتنا، وبناء على ذلك لـــــــــــــــم تكـــــــــــــــن حيـــــــــــــــاة

" ميتوشالح " أكثر من حياة اعتيادية لم تتجاوز السبعين عاما، فإذا فعلنا ذلك مع " ميتوشالح " الذي يقال أنه عاش تسعمائة وتسعا وتسعين سنة، فماذا نفعل لملك حكم 72 ألف سنة؟ ومن الواضح أننا لا نستطيع أن نصدق أن البابليين واليهود يعدون دوما كل بضعة أيام سنة.

" وقد برزت من هذه الطريقة الصعبة طريقة أخرى سهلة وهى: أن مؤرخى اليهود الذين حاولوا ملء الفراغ الواقع بين ما اعتقدوا أنه التاريخ الصحيح لخلق العالم، والفترات التاريخية التي اعتمدوا في تعيينها على ما عندهم من تدوينات موثوق بها بعض الثقة فوجدوا عددا محدودا من الأسماء ليستعينوا بها في ملئ هذا الفراغ وبدلا من أن يبتكروا أسماء جديدة مدوا في حياة الأشخاص الذين عندهم ليسدوا هذا الفراغ في السنين " [2].

ويسود الشعور الآن بين الكتاب المحدثين أن الوقت قد حان للكشف عن صلة الثقافة اليهودية ومن ضمنها الديانة اليهودية بالثقافات السامية القديمة، فيقول الأستاذ هوك في مقدمة كتابه " أصول الديانات السامية القديمة ": " إننا الآن في وضع أكثر ملاءمة من أى وقت مضى لتوضيح علاقة العناصر الأساسية للديانة اليهودية بشبكة الشعائر الدينية التي كانت سائدة في البيئة السامية القديمة من وجهة نظر تاريخية جديدة " [3].

ونحن نقول: " لقد آن الأوان للباحثين أن يتحرروا من التقيد بمدونات التوراة

(1) النجار، " قصص الأنبياء "، 1936، ص 68.

(2) إدوارد كييرا، " كتبوا على الطين "، ترجمة محمود الأمين، 1964.

(3) S.H. Heoke, "The origins of Early Semitic Ritual", 1938, P.VII.

في بحث تاريخ فلسطين القديم، وعليهم أن يتوغلوا في أحداث الاكتشافات للنصوص القديمة التي سبقت عصر التوراة بعشرات من القرون فمهدت السبيل للتمييز بين الغث والسمين واقتفاء التواريخ حسب تسلسلها الزمني.

5 ـ قصة الخليقة عند البابليين وعند اليهود:

إن أصل الوجود والخليقة من الأمور التي شغلت تفكير القدماء منذ أقدم العصور، وقد عثر علماء الآثار على كثير من النصوص من الأدب العراقي التي تعبر عن اعتقادات الأقوام السومرية والبابلية والأشورية والمصرية في الخليقة وأصل الوجود، أكثرها يتفق مع المآثر اليهودية في التوراة مع الفارق في صيغة الشرك، أي تعدد الآلهة، في الأديان القديمة مقابل صفة الإله الواحد الخاص باليهود في الديانة اليهودية، وأكمل القصص القديمة التي عثر علها القصة البابلية المشهورة برقم الخليقة السبعة، لأنها دونت على سبعة ألواح من الطين. وقد وردت هذه القصة بألف سطر تقريبا ويعتقد أنها ترجع إلى عهد حمورابى حين أصبح الإله مردوخ سيد الآلهة، رغم أنها كتبت في وقت لاحق. وملخص القصة أنه لم يكن في البدء سوء العماء (Chaos) المكون من " البحر الأول " أو " المياه الأولى ". والعماء كما يفسره الباحثون جريا على ما ذهب إليه بعض فلاسفة الإغريق يمثل المادة التي تكونت منها الموجودات. وهذه المادة مؤلفة من عنصرين من الماء: الماء العذب (وهو العنصر المذكر) والماء المالح (العنصر المؤنث).

وقد جسّد البابليون هذين العنصرين من الماء وجعلوهما إلها وإلهة، وهما " آبو " و " تيامة " وعدوهما أصل الآلهة الأخرى وأصل جميع الأشياء، وقد ولد هذان الإلهان آلهة أخرى، وحدث بعد دهور أن نشبت حرب بين الآلهة القديمة والآلهة الحديثة قتل فيها الإله " أبسو "، ثم دارت حرب أخرى بين " تيامة " زوج " آبسو " والآلهة الحديثة قضى فيها على " تيامة ". ومن بقايا جسمها خلق العالم الممثل بالسماء والأرض، وقد أطلق على ذلك مصطلح " آن - كى " وهى كلمة مركبة تعنى السماء والأرض، ولما كان الإله " آن " إله السماء ذكرا والإلهة " كى " أى الأرض، كانت أنثى فمن اتحاده هذين الإلهين ولد الإله " أنليل " إله الهواء، ثم فصل الإله " أنليل " هذا السماء عن الأرض وأخذ أمه الأرض وهيأ لخلق الإنسان والحيوان والنبات وتأسيس المدنية. أما عن أصل الأجرام فقد اعتبروا الإله القمر المعروف بالاسمين " سين " و " ننا " ابن الإله " أنليل " كما

اعتبروا الإله الشمس المسمى " أوتو " (شمش) ابن سين الإله القمر.

والتشابه بين قصة الخليقة البابلية وبين التوراة واضح، فكلتاهما تشير إلى وجود (عماء) مظلم من الماء، كما أن الكلمتين المستعملتين متشابهتان في كلا المصدرين، فتقول التوراة: " وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه " [1] والاختلاف بين العقيدة البابلية وبين رواية التوراة تنص على وجود الله منذ الأزل وقد سبق وجود المادة وهو الذي خلق المادة، في حين أن الرواية البابلية تشير إلى أن المادة وجدت منذ الأزل ولكنها كانت ذات صفة ثنائية لأنها كانت إلها في الوقت نفسه فولدت من هذه " المادة الإله " جميع الأشياء والموجودات.

وتتفق قصة الخليقة البابلية مع رواية التوراة اليهودية وذلك بفصل المياه الأولى فقد فصل الإله مردوخ جسم " تيامة " (الماء المالح المؤنث) وكون من نصفه السماء، وصنع من شطره الثانى الأرض بهيئة قبة (أى نصف كرة) ووضعها في البحر، أى مياه " الأبسو " (مياه البحار السفلى ومصدر المياه جميعها).

وورد في سفر التكوين [2] أن الأرض أول ما خلقت كانت طافية في الماء، وفى اليوم الثالث أمر الله أن تجتمع المياه جميعها في موضع واحد فظهرت اليابسة، وتطغى على أساطير الخليقة البابلية صبغة الشرك أى تعدد الآلهة التي هى من أبرز ميزات الدين البابلى.

أما عن أصل الوجود والخليقة عند الفراعنة فإننا نجد في أسطورة فرعونية قديمة ما يشبه الوصف البابلى للخليقة حيث تقول: " في البدء كان الماء الأول أو المحيط المظلم، وكان الإله (أنون) وحده فخلق الآلهة والبشر والأشياء ". وهناك أسطورة فرعونية أخرى تقول: " أن الأرواح كانت ترفرف فوق البحار، وفى الفضاء، ونفذ روح الإله (أمون) في ذلك الفضاء، وخلق الأرض والسماء والبشر وكل شئ ".

وهناك تشابه بين المدونات السومرية والبابلية وبين مدونات التوراة في صفة كون الإنسان خلق على صورة الإله أو الآلهة " فقد عزا السومريون والبابليون إلى آلهتهم صفات البشر جميعها، لها عواطفها وميولها مثل البشر، وهى تعيش

(1) (تك، 1: 2).
(2) (تك، 1: 9 - 10).

وتأكل وتتزاوج وتسكن في بيوت، هى المعابد المشيدة لها وفيها خدمها وطهاتها وكهنتها، ولكل إله زوج أو زوجات وسرارى ومعشوقات وله بنات وأولاد... الخ.

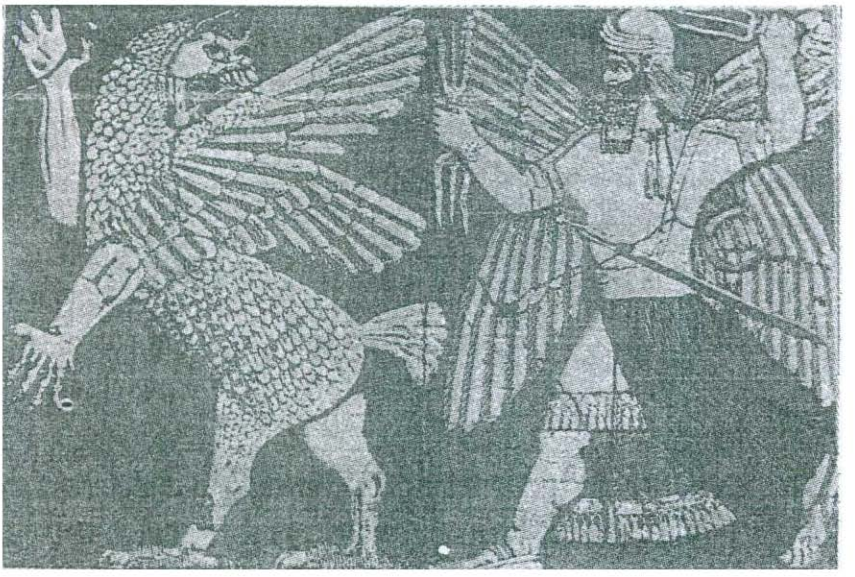

التصوير رقم (74)

أحد الآلهة القديمة يقاتل تنينا " أقرنا " يمثل " العماء ": ففي اللاهوت القديم كان الإله " أنليل " هو الذي هشم التنين، وفى اللاهوت المتأخر قام الإله مردوخ بطل آلهة بابل بهذا الدور.

ولما أخذ اليهود بهذه الأساطير الدينية أصبح القائم بهذا الدور إلههم " يهوه ": " أنت سحقت رهب مثل القتيل "، (مز 89: 8 - 12) انظر:

King, "Bapylonian Religion and Mythology", Cunelform Parallels, P. 487

ومن ظواهر صفة التشبيه تأليه الملوك العظام في حياتهم وبعد مماتهم. وتمتاز الآلهة عن البشر بصفات أبرزها أنها تتصف بصفة الخلود فهى بخلاف الإنسان لا تموت، وإن مات بعضها مثل الإله الذي يمثل فصل الربيع فإنما يكون ذلك لأمد محدود، وأن رجوع الإله الميت إلى الحياة أمر ممكن بعكس الإنسان. ومساكن الآلهة الأصلية في السماء وبإمكانها أن تنزل إلى الأرض وفى يدها مصير البشر... وكانت الغاية من خلق الإنسان ليعبدها ويمدها بما تحتاجه من المؤن لعيشها. لذلك فإن عدم تحقيق هذه الغاية أو التقصير فيها يعرض الإنسان

إلى بطشها ونقمتها وغضبها في هذه الحياة بشتى ضروب العقاب.. إذن فالحصول على رضا الآلهة هو أقصى ما يتوق إليه العبد ويسعى إليه لأن سخط الآلهة مجلبة للويلات والدمار ".

ومثل ذلك ورد في التوراة: فالإله الرب خلق الإنسان على صورته ذكرا وأنثى[1]. ثم إن نفس ما ورد في النصوص السومرية والبابلية حول كسب رضا الإله الموجود في التوراة، فعلى بنى إسرائيل (اليهود) أن يكسبوا رضا إلههم " يهوه " وإلا فعاقبتهم وخيمة إذا أعرضوا عن عبادته وطاعته فيسلط عليهم الأعداء ويعرضهم إلى شتى أنواع العقوبات، وكذلك فإن النص السومرى الذي يشير إلى أن الإله ينزل من السماء ويختار الأماكن على الأرض هو نفسه وارد في التوراة [2].

ويوجد تشابه بين قصة خلق الإنسان السومرية وبين رواية التوراة اليهودية فحسب القصة السومرية أن الإنسان صنع من الطين، ونص التوراة مشابه تمامًا لذلك حيث ورد في سفر التكوين [3] ما هذا نصه: " وجبل الرب الإله آدم ترابًا من الأرض، ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفسًا حية ".

يتضح مما يتقدم أن اليهود اقتبسوا أكثر قصصهم ورواياتهم من الآداب السومرية والبابلية والكنعانية، وقد جاء أسلوب تدوينهم للأحداث مطابقا للأسلوب المتبع في تدوين القصائد والملاحم السومرية والبابلية والتى من صفاتها الإعادة والتكرار، فقد اقتبس اليهود هذا النوع من الشعر من البابليين والسومريين وهو شعر موزون ولكنه غير مقفى.

ويؤكد الأستاذ طه باقر هذا الرأى في بحثه عن أصل الخليقة في معتقدات قدماء سكان العراق، فيقول: " ومما لا شك فيه أن العبرانيين (أى اليهود) أخذوا أشياء كثيرة عن البابليين ولعل أبرز ما يجده المرء من ذلك قصة الخليقة البابلية والمعروفة بـ " أنيوما - أبليش " [4].

---

(1) (تك، 1: 27، 5: 1 - 2).
(2) (ت، 11: 5) ، (خر، 19،: 3، 20).
(3) (تك، 2: 7).
(4) اعتمدنا في عرض هذه الخلاصة عن قصة الخليقة عند البابليين والسومريين على كتابة كريمر " الأساطير السومرية "، وعلى المقالين التاليين للأستاذ طه باقر:
1- " ديانة البابليين والأشوريين "، سومر م2 (1946)، ص 1 - 19، 179 - 196.

6 ـ البعث والقيامة عند اليهود وعند السومريين والبابليين والمصريين:

وتدل النصوص السومرية والبابلية على أن هناك تشابها تاما بين تلك النصوص وبين نصوص التوراة حول فكرة البعث والنشور في حياة أخرى بعد الموت، فكلاهما ينكران البعث والقيامة، فقد وصف السومريون والبابليون العالم الآخر أنه عالم الظلام والرهبة، وهو المكان الذي إذا ذهب إليه الإنسان لا يخرج منه أبدا. وقد سماه السومريون العالم السفلى الذي يحكم فيه الإله " نرجال " وينعتونه أحيانا بمدينة الأموات، وقد سماه البابليون " أرالوا " والناس في هذا العالم كما ورد في ملحمة جلجامش متساوون، وقد ورد وصف الآخرة في القصيدة التي تصف نزول الإلهة عشتار إلى هذا العالم في بداية الربيع من كل عام لتخرج زوجها تموز إله الخضار والربيع فقيل إنه موضع مخيف مسور بسبعة أسوار ضخمة يحرس كلا منها مردة الشياطين وتتولاه الإلهة إيرشكيكال إلهة الظلام والدجى والموت [1].

التصوير رقم 75

أنابيب خزفية في جوف الأرض لإيصال النذور والقرابين إلى آلهة العالم الأسفل

إن هذه الأنابيب الخزفية وجدت مدفونة تحت الأرض في مدية أور السومرية وجدت ممتدة بصورة عامودية إلى عمق زهاء أربعين قدمًا ويعتقد أنها دفنت

2- " الخليقة وأصل الوجود "، سومر م 5 (1949)، ص 1 - 36، 175 - 314.

(1) انظر:

Jastrow, "Hebrew and Babylonian Tradition", N.Y., 1914, (Cahp. IV) Wooley, "Excavations at Ur", pp. 108 - 109.

تحت الأرض بهذا العمق بغية إيصال النذور والقرابين إلى الآلهة " إيرشكيكال " Ereshkigal آلهة الظلام والموت. وقد استدل الباحثون على ذلك بما عثروا عليه في داخل الأنابيب من شقف الأواني التي رميت في فتحة الأنبوب تحت أرضية البناء وهي من نوع الأواني التي كان السومريون يقدمون فيها نذورهم إلى الآلهة فوق الأرض.

وخلاصة القول أنه ليس في عقائد البابليين والسومريين ما يوعد بها الإنسان من آمال دينية لذيذة بعد الموت، أى لا توجد عندهم جنة ونار أو نعيم وجحيم، وأثر هذا الاعتقاد في الحضارة السومرية البابلية جلى واضح في جميع مقوماتها حيث تطغى عليها صفة المادية والنعيم والمتعة في هذه الحياة.

وكان أقرب مثال واقعى للموت عند الأقوام هو النوم، فكان السومريون والبابليون يعتقدون بأن الميت يحتفظ بشئ من الشعور يستمر ملازما له عند اللحظة التي يغمض فيها عينيه، وكانوا يتصورون " أن روح الميت تتمثل في شبح سموه (أدمو) ينزل مع الميت إلى العالم السفلى ويبقى معه هناك في حال دفن الميت وفق الطرق والمراسيم الدينية المقررة، وإذا لم تتوفر هذه الشروط انقلب هذا الشبح روحا خبيثا يخرج من عالم الأموات في الأرض السفلى ويكون ديدنه إلحاق الضرر والأذى بالأحياء ولاسيما بأقارب الميت، ولذلك عنى الناس عناية شديدة بدفن الميت بموجب القواعد الدينية منعا لخروج (أدمو) من عالم الأرواح [1].

أما إذا رجعنا إلى التوراة فلا نجد أى ذكر فيها لفكرة البعث والنشور في حياة أخرى أو لدار العقاب ودار الثواب في العالم الآخر. والتشابه ظاهر جلى في كلا المصدرين البابلى والتوراتى في الثواب والعقاب الزمنيين، فالنص التوراتى يشبه تمام النص البابلى في أن العقاب زمنى في هذه الدار الدنيا كالآلام والمرض وفقد

(1) اعتمدنا في عرض هذه الخلاصة عن عقيدة العالم الآخر عند البابليين والسومريين على المقالات التالية للأستاذ طه باقر:
1- " ديانة البابليين والأشوريين "، سومر م2 (1946)، ص 1 - 19، 179 - 196.
2- " ملحمة جلجاش والطوفان "، سومر 6 (1950)، ص 42 - 80، 143 - 191.
3- " عقائد سكان العراق القدماء في العالم الآخر "، سومر م 10 (1954)، ص 8 - 39.

المال والموت العاجل وتسلط الأعداء.. الخ [1]. أما بعد الموت فيذهب الإنسان إلى دار الأموات " وفى الظلام يذهب واسمه يغطى بالظلام [2] " وهذا نفس عالم الظلام البابلى حيث يتساوى الجميع فيه، " أليس إلى موضع واحد يذهب الجميع [3]، وكلمة التساوى هذه هى نفس التعبير الوارد في النص البابلى، وقد سمت التوراة العالم السفلى البابلى والسومرى باسم " سلاه " [4] ولعل كلمة " سلاه " تعريب لكلمة " شيئول " العبرية التي تعنى الهاوية، والهاوية معناها في الأصل الميثولوجى مكان الأموات من هبط إليه لا يصعد [5]، وهذا نفس كلام السومريين والبابليين " المكان الذي لا خروج منه "،وسمته أيضا " الظلام وظل الموت " [6]، وهو نفس كلام البابليين " عالم

(1) (جا، 5: 18 - 20).
(2) (جا، 6: 4).
(3) (جا، 6: 6).
(4) وردت كلمة " سلاه " 74 مرة في التوراة (العهد القديم). والمعنى الأساسى المقصود بها غير معروف بالضبط، فقد ورد في قاموس الكتاب المقدس (الطبعة الجديدة لعام 1971) أنها تعبير موسيقى يعنى تقوية اللحن وتوقيفه بشدة. ويلاحظ أن " سلاه " وردت في التوراة بصفة إله الأموات مثل إله العالم السفلى السومرى " نرجال " والإلهة " إيرشكيكال " إلهة الظلام والموت البابلية:
" كل الأرض تسجد لك وترنم لك لاسمك سلاه " (مز، 66: 4).
" يا ممالك الأرض غنوا لله رنموا للسيد سلاه " (مز، 68: 32).
" يخطفك ويقلعك من مسكنك ويستأصلك من أرض الأحياء سلاه " (مز، 52: 5).
انظر أيضا:
(مز، 68: 7، 19؛ 84: 4؛ 88: 10 - 12).
(5) " الذي ينزل إلى الهاوية لا يصعد " (أى: 7: 9).
" سلاه أبعدت عنى معارفى، جعلتنى رجسا لهم، أغلق على فما أخرج " (مز، 88: 8).
ثم انظر في صفات الهاوية:
(مز، 16: 5، 16: 8 - 10، 31: 17، 49: 14 - 15، 57: 6، 88: 12، 139: 8)؛ (تث، 3: 22)؛ (أش، 38: 10)؛ (1 صم، 28: 8 - 19)؛ (2 صم، 22: 6)؛ (عا، 9: 2)؛ (عد، 16: 30 - 32)؛ (جا، 9: 10)؛ (نش، 8: 6)؛ (أم، 1: 12، 9: 18، 15: 11).
(6) (أى، 3: 5، 10: 21).

الظلام والرهبة "، وفى مكان آخر سمته " الجب وأسافل الجب " [1] ووادى ظل الموت [2]. ومن المرجح أن الكنعانيين الذين أخذ الإسرائيليون عنهم تقاليدهم وعاداتهم بل وأكثر شرائعهم كانوا يحملون نفس الفكرة التي اعتمدها اليهود في هذا الصدد.

وقد ظهرت جماعة من اليهود مؤلفة من طبقة الكهنة وبعض الكتبة كانت تجاهر بمبدأ نكران البعث والنشور والقيامة وتذهب إلى أن عقاب العصاة وإثابة المحسنين إنما يحصلان في حياتهم، وهؤلاء صاروا يعرفون بالصدوقيين نسبة على رائدهم الأول صدوق أو صادق، وكان هؤلاء يرفضون كل ما هو خارج عن الوحى المدون في أسفار موسى الخمسة ثم نشأة فكرة العقاب عند علماء اليهود في وقت لاحق، فقال بعضهم بوجود سبع دور متناوبة الدرجات، ورأى بعضهم أن للعقاب دارين دار عليا وأخرى سفلى، واحدة لعقاب الجسد في هذه الحياة وأخرى لعقاب النفس في الآخرة، ولهذه سبع درجات متفاوتة حسب تفاوت الذنوب، ومنهم من قال أن الناس يقسمون بعد الموت ثلاث فرق، فرقة صالحة حسناتها تربو على سيئاتها تتمتع بالسعادة الأبدية حالا وفرقة طالحة تزيد سيئاتها عن حسناتها تعذب عذابا أبديا، وفرقة ثالثة بين بين تعذب في جهنم مدة حتى تطهر من ذنوبها فتصعد إلى السماء.

وقد ظهرت قبيل عهد المسيح فرق من اليهود تؤمن بالقيامة وبالعقاب وبالملائكة فكان أقدمهم السامريون الذين اتخذوا لهم هكيلا خاصا بهم في جبل جرزيم في شكيم (نابلس الحالية) حيث مارسوا عبادتهم منعزلين عن اليهود الذين

---

(1) " لكنك انحدرت على الهاوية إلى أسافل الجب " (أش، 14: 15).
" دعوت باسم يا رب من الجب السفل " (مرا، 3: 55).
=
= " أهبطك مع الهابطين في الى شعب القدم وأجلسك في أسافل الأرض في الخرب الأبدية مع الهابطين في الجب لتكونى غير مسكونة وأجعل فخرا في أرض الأحياء " (مز، 26: 20).
راجع أيضا:
(مز، 28: 1، 40: 2، 55: 23، 88: 4 و 6، 143: 7)؛ (أم، 1: 12)؛ (أش، 38: 18)؛ (حز، 31: 14، 32: 18).
(2) " إذا سرت في وادى ظل الموت.. " (مز، 23: 4).
راجع أيضا (مز، 107: 14، 143: 3)؛ (أى، 34: 22).

كانوا على خلاف ديني معهم وقد اشتدت العداوة بينهم.

" ويلاحظ في سفر المكابيين تأكيدا قويا للمجازاة في الحياة الأخرى ولقيامة الموتى وذلك دليل على فكرة متطورة عما بعد الموت اعتنقها فيما بعد الفريسيون وعلمها المسيح وتركها للكنيسة " (1).

والفريسيون فرقة من الفرق اليهودية المتأخرة يؤمن منتسبوها بالقيامة وبالروح وبالملائكة على نقيض الصدوقيين الذين لا يؤمنون بالقيامة ولا بالروح ولا بالملائكة، وكان بولس الرسول فريسيا من حيث إيمانه بالقيامة قاومه اليهود وناصبوه العداء هم والصدوقيون.

" ولما علم بولس أن قسما منهم صدوقيون والقسم الآخر فريسيون صاح في المحفل أيها الرجال الأخوة أنا فريسي وأنا على الرجاء وقيامة الأموات أحاكم، فلما قال ذلك وقع خلاف بين الفريسيين والصدوقيين وانشقت الجماعة، لأن الصدوقيين يقولون بعدم القيامة وعدم الملاك والروح والفريسيين يقرون بذلك كله " (2)

ولابد من الإشارة في هذا الصدد إلى أن قول بولس أنه فريسي إنما عنى به اتفاقه معهم في الإيمان بالقيامة، ولكنه كان يختلف معهم في قبول الأحكام المتوارثة على لسان الأسلاف وفى جملتها التلمود، لذلك كان الفريسيون بزعامة يوحنا بن ذكاى الذين يقبلون بالشرائع الشفوية الموروثة ومعهم الصديقيون الذين لا يؤمنون بالقيامة قد ناصب كلاهما المسيح وأعوانه العداء.

أما المصريون القدماء، فكانوا يعتقدون بوجود دار للعقاب ودار للثواب، وأن النفس بعد الموت تحاكم في حضرة الإله " أوسيرس " واثنين وأربعين قاضيا، وتوزن هى وأعمالها، فإذا وجدت ناقصة حكم عليها بالعقاب، إما بأن تساق إلى الأرض لتحل في جسم حيوان من الحيوانات النجسة أو تلقى في دار العقاب حيث النار والأبالسة، وقد تطهر من آثامها فيسمح لها بالعودة إلى الأرض والظهور في جسد الناس (3). ذلك ما يدل بوضوح على أن الاعتقاد بخلود الروح وفى الحياة بعد الموت كان مبدأ دينيا أساسيا في حياة المصريين القدماء، بخلاف ما كان عليه

(1) الكتاب المقدس، الطبعة الكاثوليكية لسنة 1960، م2، ص 769.
(2) (أ ع، 23: 6 - 8).
(3) سومر م 2 (1946)، ص 9، المقتطف م15 (1891)، ص 18 وما بعد، وص 76 وما بعد.

السومريون في هذه الناحية، وذلك على الرغم من العثور في مقبرة أور السومرية على مواد تركت للأموات عند حجر قبورهم والتى تعطى الانطباع على أن السومريين كانوا يعتقدون بالحياة الأخرى أيضا، إذ يؤكد المستر وولى الذي قام بالتنقيب في هذه المقبرة أنه لم يجد أى دليل على ارتباط هذه المواد بأية صلة دينية تتعلق بالاعتقاد في الحياة بعد الموت[1].

وقد ابتكر المصريون طريقة التحنيط للأجسام لحفظها من عوامل البلى وشيدوا أهراماتهم وجعلوها قبورا تحفظ فيها الأجساد بعد انفصالها عن الأرواح، لذلك كان الأهل والأقرباء يتركون في الحجرة التي يوضع فيها الدفين ما يحتاجه بعد عودة الحياة إليه من مفاخر الطعام ولذيذ الشراب. وكانوا يزينون حجرة الميت بزخارف ينقشونها على الجدران تشتمل على مشاهد تمثل مختلف تحركات الميت في حياته اليومية الأكثر دينية.

7 ـ قصة آدم وحواء في تصوير السومريين:

ومما يثير الدهشة والغرابة أن المكتشفات الأخيرة قد دلت على أن قصة آدم وحواء بما فيها قصة جنة عدن التي وردت في التوراة قصة قديمة ترجع جذورها إلى عهود ما قبل التوراة، فقصة آدم وحواء التي تشير إلى إغراء الحية لحواء وتناول حواء وآدم من ثمر شجرة معرفة الخير والشر بالرغم من منعهما من الأكل منه.

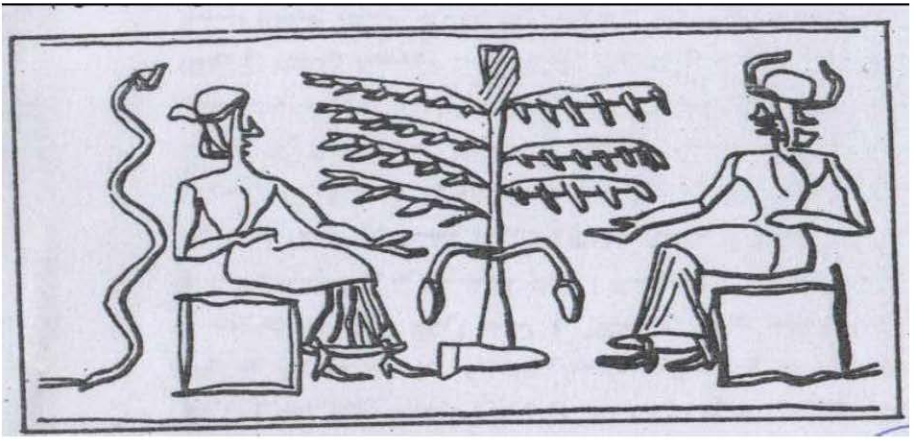

التصوير رقم (76)
قصة آدم وحواء وإغراء الحية لهما على نقش سومرى

(1) Woolley, "Excavations at Ur", P. 55.

إن هذه القصة ذاتها، نجدها مصورة على نقش سومرى [1]، يشاهد فيه رجل على رأسه قلنسوة ذات قرنين وامرأة حاسرة الرأس جالسين الواحد أمام الآخر وقد نبتت شجرة بينهما تشبه شجرة النخل تدلى عذقان من التمر من طرفيها، ويشاهد الرجل مادا يده اليمنى نحو الغدق أمامه ليقطف من ثمره، كما تشاهد المرأة وهى مادة يدها اليسرى نحو العذق الذي أمامها لتقطف من ثمره أيضا، ثم تشاهد الحية وهى منتصبة على ذنبها خلف المرأة تغريها في الأكل من هذا الثمر المحرم عليها أكله. وهذا دليل على ان شجر النخل وجد على تربة جنوب العراق منذ أقدم الأزمنة وأن شجرة معرفة الخير والشر هى شجرة النخل بالنسبة للسومريين (انظر التصوير رقم 76).

ومما يذكر أن هذا النقش التاريخى وضع قبل التوراة بزهاء ألفى عام، مع العلم أن البعض يشك في كون هذه الصورة تمثل قصة آدم وحواء من غير أن يعطى هؤلاء تفسيرا آخر ونحن نميل إلى ضم صوتنا إلى أصوات القائلين بأنها تمثل القصة لأن الصورة تتكلم عن نفسها دونما حاجة إلى شرح.

8 ـ فكرة الفردوس عند السومريين والساميين:

أما موضوع " جنة عدن " التي أوردتها التوراة فقد خلص الخبراء في ضوء الاكتشافات الأخيرة إلى أن فكرة الفردوس (الفردوس الإلهى) ترجع إلى عهود قديمة أيضا، إذ عثر على لوح نقشت عليه قصيدة سومرية فيها تشابه بين المدونات التوراتية والقصة السومرية. وكان موضع الفردوس بموجب القصة السومرية في أرض " دلمون " التي رجع بعض الباحثين أنها كانت في الجهة الجنوبية الغربية من بلاد فارس، بينما يرجح البعض الآخر أنها كانت في الجهة الغربية من ساحل الخليج العربى وقد عين هؤلاء الباحثون المحققون مكانها في البحرين، وتذهب القصة السومرية إلى أن بلاد " دلمون " كانت جزيرة تتمتع بقدسية خاصة وكانت فيها آلهة تعبد لها أهل العراق، وقد وصفت بكونها " أرض الخلود التي لا يوجد فيها مرض أو موت أو حزن ولا ينعق فيها غراب، ولا ترفع الطيور أصواتها بعضها فوق بعض، ولا تفترس أسودها، ولا يأكل ذئب فيها حملا، إلا أنه كان ينقصها الماء العذب اللازم لحياة الحيوان والنبات، فأمر إله الماء السومرى العظيم " أنكى "، " أوتو " إله الشمس أن يملأها بالمياه العذبة النابعة من الأرض. وهكذا تحولت " دلمون " إلى

(1) W.H. Ward, "The seak Cylinders of Western Asia", 1990.

حديقة إلهية غناء مملوءة بالأثمار والمروج والرياض.

والأرجح في رأينا أن فكرة الفردوس الإلهى كان أول من ابتدعها الساميون العموريون الذين استقروا على ضفاف نهر الفرات في جوار عانة وهيت لأن أكثر العلماء الأثاريين متفقون على أن الساميين كانوا قد نزحوا من الجزيرة العربية إلى ضفاف الفرات في حوالى الألف الرابعة قبل الميلاد، وبذلك يكونون قد سبقوا السومريين في الاستيطان بحوالى ألف عام. وهكذا فقد حددوا موقع الجنة بالنسبة إلى مستقرهم على نهر الفرات في رأس دلتا نهر الفرات حيث تبدأ تفرعات النهر فوصفت بكونها تقع على نهر الفرات في المكان الذي يتفرع النهر فيه إلى أربعة فروع، هى فيشون وجيحون وحداقل والفرات، فيمثل الأول منخفضى الحبانية وأبى دبس، والثانى نهر الهندية الحالى، والثالث مجرى الصقلاوية القديم، أما الرابع فهو نهر الفرات أى المجرى القديم المعروف بنهر كوثا (انظر أنهر عدن السامية عن ويلكوكس). والأرجح أن مدونى التوراة اقتبسوا هذه القصة من الساميين العموريين الأوائل عن طريق البابليين فأدخلوها في التوراة [1].

أما السومريون فقد اكتفوا بوصف فردوسهم الإلهى بالنسبة إلى منطقة الغمر " أبسو " التي تمثل مياه الأهوار من غير أن يتطرقوا إلى تفرعات نهر الفرات لبعدها عنهم شمالا. ومثل ذلك كان فيما يخص قصة آدم وحواء، إذ اتخذ السامريون شجرة التفاح لتمثل شجرة الحياة، بينما اتخذ السومريون النخلة لتمثل شجرة الحياة لوجوجها في بيئتهم، لذلك نرجح أن يكون السومريون قد أخذوا فكرة القصتين من الساميين الذين سبقوهم في الاستيطان على نهر الفرات فحوروها لتتفق مع بيئتهم، إلا أن " كريمر " يخالف هذا الرأى إذ يرى أن اليهود تأثروا بالكنعانيين الذين أخذوا فكرة الفردوس الإلهى عن السومريين.

(1) (تك، 2: 10 - 14).

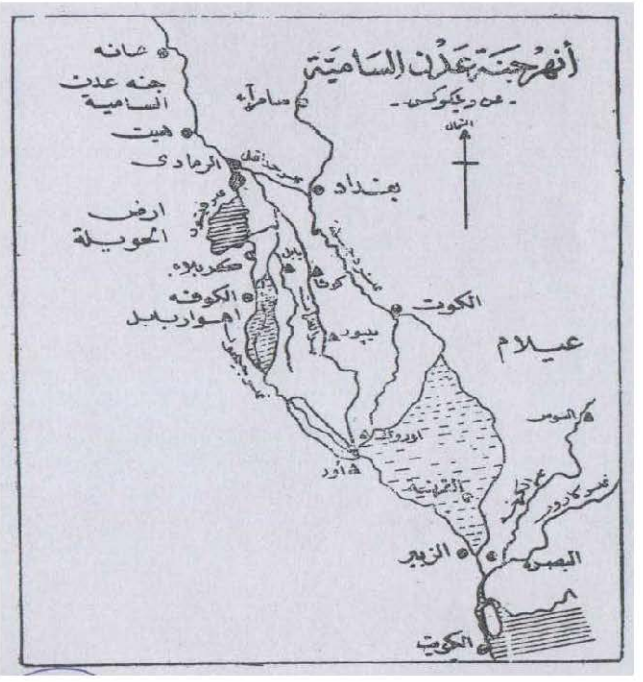

المرتسم رقم (15)

" وكان نهر يخرج من عدن فيسقى الجنة، ومن ثم يتشعب فيصير أربعة رؤوس، اسم أحدها فيشون وهو المحيط بجميع أرض الحويلة. حيث الذهب، وذهب تلك الأرض جيد، وهنالك المقل وحجر الجزع، واسم النهر الثانى جيحون وهو المحيط بجميع أرض كوش. واسم النهر الثالث حداقل، وهو الجارى شرقى آشور، والنهر الرابع هو الفرات " (تك، 2: 10 - 14).

وردنا على هذا أن الكنعانيين كانوا بعيدين كل البعد عن المنطقة السومرية، فهو يقول في كتابه " من ألوح سومر ": " لقد ترك الأدب الذي أوجده السومريون أثره العميق في العبرانيين (اليهود) ومن أكثر الأمور المثيرة هى تقصى أوجه الشبه والمطابقة بين الأفكار والبواعث السومرية والتوراتية. والشئ المؤكد بهذا الصدد أن السومريين ما كان بإمكانهم أن يؤثروا في العبرانيين مباشرة وبدون واسطة لأنهم (أى السومريين) كانوا قد زالوا من الوجود قبل أن يظهر العبرانيون، ولكن لا يوجد أدنى ريب في أن السومريين قد أثروا تأثيرا عميقا في الكنعانيين الذين سبقوا العبرانيين في استيطان البلاد التي عرفت بعدئذ باسم (فلسطين).

ويعلق الأستاذ كريمر على أوجه الشبه بين أسفار التوراة والآداب السومرية فيقول:

" فقد أصبح في وسعنا الآن أن ندرك أن هذه المجموعة العظمى من المآثر الأدبية، أى التوراة لم تظهر إلى الوجود وهى كاملة النمو كالأزهار الاصطناعية النامية في الفراغ، وإنما تمتد جذورها امتدادا عميقا في الماضى البعيد وتنتشر انتشارا واسع المدى في البلدان المجاورة، فإن أسفار التوراة في صيغتها ومضمونها كليهما ليست بالقليلة الشبه بالآداب التي خلقتها وأوجدتها الحضارات القديمة في الشرق الأدنى " (1).

9 ـ قصة قابيل وهابيل التوراتية في الملاحم السومرية:

وقد اتضح من الأساطير السومرية التي عثر عليها المنقبون أن قصة قابيل وهابيل الواردة في التوراة والتى تمثل النزاع بين الفلاح والراعى ترجع جذورها إلى عهد موغل في القدم أيضا، فمن الأساطير السومرية قصة تدعى " إيميش وأينتين " وهى شبيعة بقصة " قابيل وهابيل " في التوراة، وتتلخص الأسطورة بما يأتى: " أراد إله الهواء " أنليل " أن تنمو الأشجار والحبوب وأن تحل في البلاد الوفرة والرخاء فخلق لهذه الغاية مخلوقين أخوين هما (إيميش) و (أينتين) ليعنيا بشئون الزراعة والفلاحة وتربية الحيوان، ويبدو من سياق القصة أن نزاعا شب بين الاثنين أفضى بهما إلى التحكيم، ولكن " أنليل " اختار " أينتين " وجعله فلاح الآلهة. وتتألف هذه القصة من ثلثمائة سطر أكثر من نصفها كامل لا إبهام فيه.

ومن الأساطير الأخرى التي تمثل طرفا في النزاع المستحكم بين البدو والحضر، بين الراعى والفلاح، أسطورة الإله " لهار " إله الماشية وأخته الإلهة " إنشان " إلهة الحبوب، وهذه القصة تدور مثل القصة الأولى حول أصل النزاع بين قابيل وهابيل، وخلاصتها أن " لهار " و " إنشان " نزلا من السماء وخصص الإلهان " أنليل " إله الهواء و " أنكى " إله المياه الماشية إلى " لهار " وعينا له الخضار والعشب وبنيا لانشان بيتا وقدما لها النير والمحراث، وهكذا يبدو الصفاء بين الأخ الراعى والأخت الفلاحة ويمضيان دون حدوث ما يكدر تعاونهما وعيشهما، ولكن بعد حين تظهر فكرة الرواية، وهى العداء المستحكم بين الراعى والفلاح أو بين "

(1) " الأساطير السومرية "، الترجمة العربية، ص 229 - 240.

أهل المدر والوبر " أى بناة الطين وبناة الشعر أو الحضر والبدو، وذلك عندما شربا الخمرة وثملا، فبدأ الشجار والخصام بينهما في المزارع والحقول، ودار النزاع فيما بينهما بأن أخذ كل منهما يمتدح ويعظم أعماله ونتاجه ويزهد في أعمال الآخر، فاضطر الإلهان أنليل وأنكى إلى أن يتدخلا بين الأخت والراعى، أما نتيجة هذا القرار فمفقود.

وهناك أسطورة سومرية ثالثة شبيهة بقصة قابيل وهابيل سميت " أنانا تفضل الفلاح " وهى تمثل فكرة النزاع بين الفلاح والراعى أيضا، وأبطال القصة أربعة هم " أنانا " وأخوها " أتو " إله الشمس و " دموزى " (تموز) الإله الراعى، و " أنكيمدو " الإله الفلاح، وخلاصتها أن " أنانا " عزمت على اختيار زوج لها وكان أخوها " أتو " يحثها على الزواج من " دموزى " الراعى، ولكنها كانت تفضل " أنكيمدو " (الفلاح) فيأتى إليها " دموزى " ليعرف السبب الذي يجعلها تفضل الفلاح عليه، إلا أن " أنانا " لم تبد جوابا، ويظهر أن " أنكيمدو " راح يسعى لترضية منافسة الراعى، بيد أن الراعى يأبى الانثناء عن عزمه إلى أن يعده الفلاح بتقديم أنواع من الهدايا لإرضائه. وهنا يتعذر فهم ما تبقى من كتابة الرقيم، غير أن الظاهر أن " دموزى " الإله الراعى قد تغلب على " انكيمدو " الإله الفلاح [1].

10 ـ قصة طوفان نوح في التوراة وفى المدونات السومرية والبابلية:

أما قصة طوفان نوح الواردة في التوراة فقد جاءت مشابهة لمدونات السومريين والبابليين حيث تتفق الروايتان على أن طوفانا هائلا وقع في وادى الرافدين في أحد مواسم الفيضان الخارقة العادة، وكان هذا الطوفان من الاتساع وشدة الاندفاع بحيث غمر منطقة دلتا الرافدين كلها وقضى على جميع معالم المدنية والعمران في هذه المنطقة الواسعة، ولم ينج من السكان إلا زعيم دينى وأفراد أسرته والحيوانات التي حملها معه في الفلك التي أوحى إليه من قبل ببنائها.

ومما لا يقبل الجدل والشك هو أن قصص الطوفان الواردة في الروايات السومرية والبابلية تتفق تماما مع ما ورد في التوراة فيما يتعلق بأسباب الطوفان،

(1) سومر م5 (1949)، ج2، ص 179 - 183، 203 - 205.
S.N. Kramer, "Sumerian Mythology", pp. 49 ff, 53 ff, and 101 ff.

إنه فساد البشر وعدم إطاعتهم لإرادة الخالق وآثام الإنسان وخطاياه، مع الفارق بين الشرك السومرى والبابلى من جهة وبين الوحدانية اليهودية من جهة أخرى.

وبذلك تكون قصة الطوفان حادثة واقعية حدثت في الأزمنة القديمة في أحد الفيضانات الخارقة العادة، بدلالة إشارة المدونات السومرية إلى وقائع وأحداث يرجع بعضها إلى ما سبق الطوفان وأحداث أخرى جاءت في أعقابه، إلا أن ذلك لا يساعد على تعيين تاريخ هذا الحد الفاصل بالضبط.

ويلاحظ أن علماء الآثار حددوا الألف الثالثة قبل الميلاد تحديدا عرفيا كحد فاصل بين أحداث ما قبل الطوفان (طوفان نوح) وبين أحداث ما بعده. وللألف الثالثة هذه التي تتفق وعهد أول فرعون من السلالة المصرية الأولى دلالة انتقالية مهمة في تطور تاريخ العراق القديم، حيث أصبح هذا التاريخ في عرف علماء الآثار حدا فاصلا يرمز إلى الانتقال من حضارة العصور الحجرية إلى مدنية العصور التاريخية التي تبدأ بفجر السلالات السومرية [1].

أما الطوفان فلا يمكن أن يكون قد حدث في غير المنطقة الممتدة بين " سيبار " [2] في الشمال وبين " أور " [3] في الجنوب حيث مواطن الأكديين الساميين والسومريين على السواء وهى المنطقة المنبسطة التي تتأثر بمياه الفيضان، والراجح أن فلك نوح صنعت من نفس المواد المحلية التي تصنع منها العسبية

(1) راجع الدكتور أحمد سوسة، " فيضانات بغداد في التاريخ "، ج1، ص 149 - 201.

(2) " سيبار " إحدى المدن الأكدية السامية تقع بقاياها اليوم في التل المسمى " تل أبو حبة " الواقع جنوب غربى بلدة المحمودية الحالية على نحو عشرين ميلا من بغداد. وقد أظهرت التنقيبات فيها أنها ذات تاريخ قديم جدا، وقد ورد ذكرها بين المدن التي وجدت قبل الطوفان، كانت تقع على الضفة الشرقية من مجرى نهر الفرات القديم قبل أن يبدل مجراه، وقد كشف فيها على عدد كبير من الألواح بين سنة 1878 وسنة 1891م فقدر عدد الألواح التي استخرجت منها بـ 130000 لوح كان بعضها داخل حباب من الفخار كالحباب المستعملة للماء.

(3) " أور " المدينة السومرية الشهيرة وتعرف أطلالها اليوم باسم " تل المقبر " تقع على مسافة 16 كيلو متر جنوب غرب مدينة الناصرية الحالية، اكتشفت فيها آثار ثمينة وكنوز أثرية عظيمة عن حياة سكان وادى الرافدين في فجر التاريخ منها المقبرة الملكية المشهورة والجدار المقدس= الذي أنشأه نبوخذ نصر والهيكل المسمى " أى - جيش - سركال " أى دار النور وزقورته وموقع الإله القمر " فنار "، الجدار الذي شيده " أورضو " " (2051 - 2034 ق.م).

الحالية في هيت وطلى كلا وجهيها الداخلى والخارجى بالقار على النحو الذي تطلى به (القفة) والعسبية [1].

ويقول أولبرايت: " لقد أصبح مؤكدا الآن أن القصص العبرية المتعلقة بالخليقة والطوفان والجنة... الخ إما أن تكون مأخوذة من السومريين مباشرة أو مأخوذة عن طريق الأكديين والعموريين " [2].

ويرى العالم الآثارى إدوارد كيرا أن قصة الطوفان مأخوذة من الأدب البابلى والأدب الأشورى، فيقول في كتابه " كتبوا على الطين " [3]: " أن قصة الطوفان انبعثت من الأدب البابلى والأدب الأشورى وأنها تشبه حقا قصة الطوفان التي وردت في التوراة.

وفى قصة الطوفان البابلية والأشورية نجد الفلك المطلى بالقار، وهو نفسه الذي ورد ذكره في التوراة، كذلك ورد ذكر رجل معين مع أسرته حذرته الآلهة بقرب حدوث فيضان وانهمار مطر غزير يغرق الأرض ويميت الناس، ثم ترسو السفينة على جبل ويرسل هذا الرجل ثلاثة طيور ثم يخرج المنقذ من السفينة ويقدم القرابين، إن أوجه الشبه بين القصتين أمر يدعو إلى الدهشة ويجعل كل شخص يوافق على أن القصتين أصلهما واحد. ومن الطبيعى أن تكون بينهما بعض الفروق، فالقصة البابلية تعكس أساسا من الشرك فيه كثير من الآلهة التي تقوم بأدوارها... ولا يمكننا تخيل يهوه في ذلك الدور، وفى القصة البابلية شاعرية، مع أنها تمثل الشرك، أما قصة التوراة فتعوزها تلك المسحة الشعرية [4].

11 ـ قصة يوسف مع امرأة سيده ومثيلتها في النصوص القديمة:

وقد عثر في مصر على نصوص لأسطورة فرعونية قديمة تسمى قصة الأخوين تشبه من أوجه عديدة قصة يوسف مع امرأة سيده قوطيفار المصرى،

(1) انظر البحث حول العسبية والقفة في كتاب المؤلف " الرى والحضارة في وادى الرافدين "، ص 116 - 118.

(2) أولبرايت، " الشعب اليهودى قديما وحديثا "، ج1، ص 29.

(3) إدوارد كيرا، " كتبوا على الطين "، الترجمة العربية، ص 151.

(4) Jastrow, "Religion of Babylonia and Assyria", p. 502; Pritchard, "The Ancient Near East", p. 69.

وهذه مكتوبة على ورقة من البردى نشرتها مجلة كل شئ والدنيا المصرية [1]، وخلاصتها أنه كان لأنوبيس امرأة حسناء راودت أخاه " باتا " ولكن باتا هذا أبى أن يذعن لإرادتها حتى إذا ما رجع إليها زوجها من حقله قالت له: " إن أخاك الأصغر دعانى لمضاجعته وتمنعت عليه فلم أعد أطيق رؤيته، أفلا يستحق منك القتل؟ ولما بلغ " باتا " أن أخاه يبغى قتله لاذ بالفرار واستنجد بالآلهة لتبين الظالم من المظلوم، وبعد روايات كثيرة لا تتصل بالموضوع خلف " باتا " فرعون وصار ملك مصر العظيم ودخل في مصاف الآلهة [2].

12 ـ قصة ولادة موسى ومثلتها في النصوص البابلية:

وهناك أسطورة بابلية مكتوبة بالخط المسمارى عثر عليها في المنطقة الأكدية في جنوب العراق وهى تشبه قصة ولادة موسى ونشأته، والأسطورة منقولة عما رواه سرجون الأول ملك الأكديين (2381 - 2316 ق.م) عن نفسه من أن أمه كانت إحدى عذارى الهيكل ولا يعرف أباه فحملت به ووضعته سرا، فخبأته في صندوق من البردى وأحكمت بابه بالقير وألقته في نهر الفرات، فعثر عليه " أكى " الفلاح فرباه ليكون ابنه، ثم صار سرجون اللقيط بستانيا فساقيا لحاكم كيش وقد عشقته الآلهة عشتار فصار ملك سومر وأكد [3].

وقد تناول فرويد بحث أسطورة انتشال البطل من الماء بقوله: " إن أقدم من نعرفه من الأشخاص الذين ارتبطت بهم خرافة الولادة هذه هو سرجون الأكدى، مؤسسة بابل حوالى عام 2800 ق.م وألف الأسماء إلينا في السلسلة التي تبدأ مع سرجون الأكدى أسماء موسى وقورش وروموولوس بيد أن راتك أمكنه في البحث الذي نشره بعنوان " أسطورة ميلاد البطل " أن يجمع عددا كبيرا من وجوه الأبطال الذين تتردد أسماؤهم في الأشعار أو في الأساطير والذين عاشوا طفولة مشابهة كليا أو جزئيا.. ووضع الطفل في سلة تمثل رمزى صريح للولادة، إذ

(1) " العدد 546 "، الصادر بتاريخ 22 إبريل 1936.

(2) G.A. Barton, "Archaeology and the Bible", pp. 326 - 328; aho, "Petrie's Egyptian Tales". 2nd series, pp. 36 ff.

(3) هذا ما جاء في كتاب سيتون لويد " الرافدين " (الترجمة العربية، ص 51 - 52)، غير أن الأستاذ طه باقر قد أثار في تعليقه على ذلك أن النص الوارد في كتاب سيتون لويد " يمثل رأيا قديما وأن البحث الحديث يرى أن أم سرجون كانت كاهنة عليا من صنف الكاهنات المحرم عليهن الزواج أو على الأقل إنجاب الأطفال "..

ترمز السلة إلى بطن الأم، والماء إلى السائل السابيائى، والعلاقات بين الوالدين والأطفال تمثل في عدد لا يحصى من الأحلام، في فعل الانتشال من الماء أو الإنقاذ من الماء... إن أصل هذه ا لأسطورة يهودى، فالخرافة خلقت من قبل الشعب اليهودى، أى ربطت في صيغتها المعروفة بشخص زعيم هذا الشعب... وهنا بالتحديد تتيح لنا وجهة نظرنا الإقرار بأن الأسرة الأولى، الأسرة التي هجرت الطفل، وهى بكل تأكيد خيالية، وبأن الأسرة الثانية، الأسرة التي تولت تربية الطفل، هى الحقيقة " [1].

13 ـ شريعة حمورابى وشريعة التوراة:

تستقى الشرائع أحكامها عادة من البيئة الجغرافية ومن ظروف المجتمع السياسية والدينية والمعاشية بحيث تنسجم مع نمط حياة السكان ومشاكلهم، ولابد من أن تتأثر هذه الشرائع بعض الشئ بالشرائع التي سبقتها في مختلف المجتمعات، وفى التقاليد المرعية وفى العرف المحلى في مجرى تطورها ونموها. ولا أدل على ذلك مما هو واضح في الشريعتين شريعة حمورابى [2]،

(1) فرويد، " موسى والتوحيد "، الترجمة العربية، ص 16 - 24.

(2) إن شريعة حمورابي ترجع إلى عهد صاحبها حورابي سادس ملوك سلالة بابل الأولى الذي حكم في بابل في الحقبة الممتدة بين سنة 1792، وسنة 1750 ق.م، وهو القائل: " أن الآلهة قد نادتني لأمنع الأقوياء من أن يظلموا الضعفاء ولأنشر العدل والنور في الأرض وأرعى مصالح الخلق "، وقد دونت شريعته المكونة من ثلاثة آلاف سطر باللغة البابلية (السامية) وبالخط السماري الأكدي على مسلة كبيرة من حجر الديورانت الأسود، وقد نصب حمورابي هذه المسلة في فناء معبد " ايزاكيلا " معبد الإله " مردوخ " الإله الرسمي للدولة البابلية ونصب مثلها في معبد الإله " شماش " في مدينة سيبار، الإله الرئيسي للمدينة ، ويظهر حمورابي في هذه المسلة وهو يتسلم بخشوع عصا الراعي ليكون راعي البشر وشريط القياس للبناء من الإله " شماش " وهو جالس على عرشه، وقد ارتدى حمورابي رداء الكهنة والعمامة وهو لباس الرأس عند الساميين الغربيين، وقد صنفت الشريعة إلى اثنى عشر قسمًا يظهر فيها 282 مادة بوضوح، ومن المرجح أنها كانت تزيد على ثلاثمائة مادة بقليل، وقد عثر على هذه المسلة في السوس من خوزستان، أي البلاد العيلامية قديمًا وكان قد نقلها إلى مدينة الآثاريون الفرنسيون سنة 1902 إلى دار التحف الأثرية في اللوفر (انظر " قوانين حمورابي والقوانين البابلية الأخيرة "، ترجمة وتعليق الدكتور محمود الأمين في مجلة كلية الآداب، العدد 3 (كانون الثاني، 1961)، ص176 - 260.

وشريعة التوراة [1]، فهناك تشابه كلى في بعض مواد الشريعتين في حين أن هناك مواد أخرى تختلف في أحكامها بين الاثنتين ومواد أخرى موجودة في الواحدة دون الأخرى.

وهذا الاختلاف ناجم كما ذكرنا عن اختلاف البيئة واختلاف الظروف السياسية والاجتماعية والدينية والمعاشية في كل من البلدين اللذين وضعت فيهما الشريعتان، غير أنه لابد من الاعتراف بأن المتشابه بين الشريعتين لابد أن يكون معظمه مقتبسا من أقدمهما، أى أن المتشابه الوارد في التوراة يكون مقتبسا من شريعة حمورابى التي سبقت شريعة التوراة بأكثر من خمسمائة عام، هذا إذا أخذنا بالتاريخ الذي ظهر فيه موسى في زمن الخروج بغض النظر عن التاريخ الذي دونت فيه التوراة في وقت لاحق أى بعد تدوين شريعة حمورابى بثلثمائة وألف عام.

(1) لقد تعمدنا هنا اتخاذ مصطلح شريعة التوراة بدلا من شريعة موسى لأن عزو كل ما جاء في شريعة التوراة إلى موسى أمر مشكوك فيه للأسباب التي سبق أن أوضحناها في كيفية تدوين التوراة.

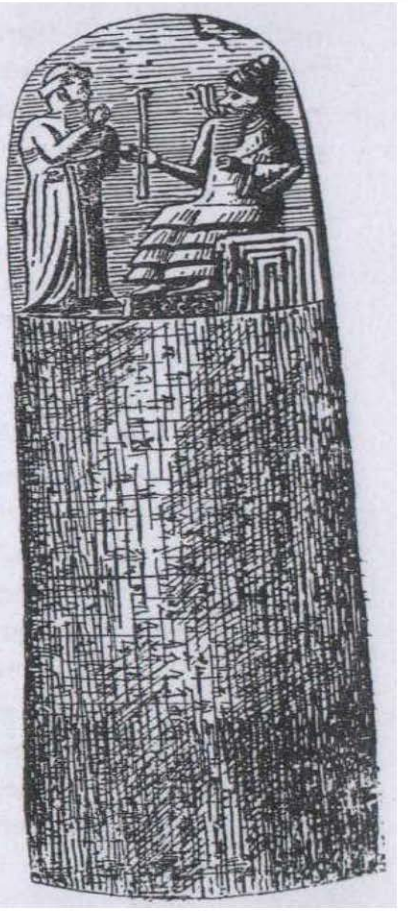

التصوير رقم (77)
مسلة حمورابى
ويظهر فيها حمورابى وهو يتسلم عصا الراعى ليكون راعى البشر ومعه شريط القياس للبناء من الإله شماش وهو جالس على عرشه

إن تأثير الاختلاف بين بيئة كل من البلدين اللذين وضعت فيهما الشريعتان ظاهرة في موادهما، فنجد مثلا أن شريعة التوراة تفرق بين الإسرائيلى وغير الإسرائيلى بوجه عام في أحكامها وأنها خاصة ببنى إسرائيل حصرا، ويكون العبيد في حكم التوراة من غير بنى إسرائيل[1]، هذا في حين أن الأحكام البابلية

(1) (لا، 25: 39 - 46)، راجع أيضًا (خر، 21: 2 - 10، 20، 26، 27)؛ (تث، 15: 12 - 18).

تفرق بين طبقات الشعب في فرض عقوباتها، فالعقوبة على الشريف تختلف عن العقوبة التي تفرض على غيره من طبقات الشعب الأخرى ومنهم الأرقاء، ففى الشريعة البابلية مثلا إذا صفع سيد حد فرد فتقطع أذنه، أما إذا شخص اعتيادى صفع شخصا اعتياديا آخر على خده فعليه أن يدفع له عشر شاقلات [1]. من الفضة [2]. كذلك إذا فقأ شخص عين ابن أحد الأشراف فعليهم أن يفقؤوا عينه، أما إذا فقأ عين سيد اعتيادى فعليه أن يدفع منا [3] من الفضة [4].

هذا وقد تناولت شريعة حمورابى بشئ من التفصيل القضايا المتعلقة بشئون الرى وزراعة الحقول وبساتين النخيل، وفرضت عقوبات لتنظيم العلاقات بين المزارعين، كما أنها قد تناولت في كثير من موادها القضايا الناجمة عن علاقة الملاك بالفلاح، في حين أن مثل هذه المواد لم ترد في التوراة لأن كل مزارع من مزارعى بنى إسرائيل كان يفلح أرضه، والزراعة في فلسطين تعتمد على الأمطار وأكثر بساتينها الكروم والزيتون. وهناك مواد تتعلق بالأسعار وتعيين أجور الأعمال ومواد أخرى تتعلق بالسفن وبخزن الحبوب وبالشئون التجارية وردت في الشريعة البابلية وهى غير موجودة في شريعة التوراة، ذلك ما يدل على أن مستوى حياة المجتمع البابلى ونظمه الحضارية كانت أرقى من مستوى المجتمع اليهودى بالرغم من أن اليهود ظهروا بعد زمن حمورابى بأكثر من خمسمائة عام.

ويلاحظ أن التلمود الذي وضع في بابل تناول الكثير من القضايا المتعلقة بالأراضى وإنشاء الجداول وصيانة السداد لصد الفيضان ومعالجة القضايا المتعلقة بشئون الزراعة المرتكزة على الرى أكثرها مقتبس من أنظمة الحياة البابلية بعد أن أخذ اليهود يمارسون الزراعة على الرى في بابل بعد السبى.

ولدينا من الدلائل على أن مدونى التوراة كانوا مطلعين على الشرائع المختلفة التي وضعها المصريون في مصر والسومريون والبابليون والأشوريون في العراق والحيثيون في فلسطين وخاصة شريعة حمورابى التي اقتبسوا منها المواد المتشابهة بين الشريعتين، الشريعة البابلية والشريعة التوراتية، وفيما يلى

(1) الشاقل: نوع من الوزن البابلى يزن 8 غرامات أو 180 حبة.
(2) المادتان 204 و 205.
(3) المنا: نوع من الوزن البابلى يزن 500غرام ويعادل ستين شاقلا.
(4) المادتان 196 و 198.

مقارنات بين أوجه الشبه بينهما.

أ - حكم العين بالعين والسن بالسن:

يعتبر أكثر الباحثين التقليد القديم الذي ينطوى على " حكم: العين بالعين، والسن بالسن " القاعدة الأساسية التي تقوم عليها الشريعة البابلية وهم يردونه إلى حمورابى واضعه الأول.

فحسب شريعة حمورابى " إذا فقأ سيد عين أحد الأشراف فعليهم أن يفقأوا عين ذلك السيد " (1)، و " إذا كسر سيد عظم سيد آخر فعليهم أن يكسروا عظمه " (2)،

و " إذا قلع سيد سن سيد من طبقته فعليهم أن يقلعوا سنه " (3). و " إذا بنى بناء لسيد بيتا ولم يكن شغله متينا بحيث انهار ذلك البيت الذي بناه وقتل صاحب البيت فيجب قتل ذلك البناء " (4). و " إن قتل ابن صاحب البيت فعليهم أن يقتلوا ابن ذلك البناء " (5).

وقد أخذت التوراة بهذا المبدأ أيضا ومعنى وطبقته في أماكن متعددة من شريعتها، فحسب شريعة التوراة " وإن حصلت أذية تعطى نفسا بنفس، وعينا بعين، وسنا بسن، ورجلا برجل، وكيا بكى، وجرحا بجرح، ورضا برض " (6). و " إذا أمات أحد إنسانًا فإنه يقتل، ومن أمات بهيمة يعوض عنها نفسا بنفس، وإن أحدث إنسان في قريبه عيبا فكما فعل يفعل به، كسر بكسر، وعين بعين، وسن بسن، كما أحدث عيبا في الإنسان كذلك يحدث فيه، من قتل بهيمة يعوض عنها ومن قتل إنسان يقتل " (7). و " لا تشفق عينك، نفس بنفس، عين بعين، سن بسن، يد بيد، رجل برجل " (8).

ب - تهريب الرقيق وسرقة الإنسان لبيعه:

---

(1) المادة 196.
(2) المادة 197.
(3) المادة 200.
(4) المادة 229.
(5) المادة 230.
(6) (خر، 21: 23 - 25).
(7) (لا، 24: 17 - 21).
(8) (تث، 19: 21).

أجازت الشريعتان البابلية والتوراتية الرق فكان لابد لهما من معالجة هذه الظاهرة الاجتماعية.

فشريعة حمورابى تعالج مسألة الرق بوصفها تشكل ظاهرة اجتماعية لها خطورتها ودورها الهام في المجتمع البابلى الزراعى وقامت على هذا الأساس بتحديد حقوق الرقيق وحدوده وواجباته [1]، من وجهة إنسانية فلا يكون هناك رق أبدى ولكنها في الوقت نفسه حكمت على " كل من احتفظ في بيته برقيق هارب أو ساعد رقيقا هاربا أو أمة هاربة " بعقوبة الإعدام [2].

وقد أخذت التوراة بهذا المبدأ " فمن سرق إنسان وباعه أو وجد في يده يقتل قتلا " [3]. ولكنها حصرته في بنى إسرائيل (بمعنى اليهود) " إذا سرق أحد نفسا من أخوته بنى إسرائيل واسترقه وباعه أو وجد في يده يقتل قتلا " [4].

فهى لا تعالج مسألة الرق من حيث أنها تشكل ظاهرة اجتماعية وإنما من وجهة عنصرية بحتة ومن حيث علاقتها ببنى إسرائيل فليس هناك رق أبدى للعبد الإسرائيلى أما العبد من غير بنى إسرائيل فقد حولته إلى متاع يتوارثه الخلف عن السلف [5]، ومن جهة أخرى فإنها تشجع على تهريب الرقيق من عند غير الإسرائيلى " عبدا أبق إليك من مولاه لا تسلم إلى مولاه، عندك يقيم في وسطك في المكان الذي يختاره في أبوابك حيث يطيب له، لا تظلمه " [6].

جـ - انتهاك حرمة الأبوين:

كلتا الشريعتين: شريعة حمورابى وشريعة التوراة، توجبان إكرام الوالدين " أكرم أباك وأمك " واحترامهما وتنهيان عن العقوق والتطاول عليهما أو على أحدهما وتعاقبان الابن الذي يرتكب مثل هذه العصية، ولكنهما تتخالفان في درجة عقوبتها وشدتها [7]، فبينما نجد شريعة حمورابى تقضى بقطع يد الابن الذي

(1) المواد 278 - 282.
(2) المواد 14 - 20.
(3) (خر، 21: 16).
(4) (تث، 24: 7).
(5) (لا، 25: 39 - 55).
(6) (تث، 23: 15 - 16).
(7) (خر، 19: 12)، راجع أيضًا (لا، 19: 3)؛ (مت، 15: 4)؛ (أف، 6: 3).

يضرب أباه وأمه[1]، نجد شريعة التوراة تشدد العقوبة إلى حد القتل " من ضرب أباه أو أمه يقتل قتلا.. كل إنسان سب أباه أو أمه فإنه يقتل، قد سب أباه أو أمه. دمه عليه " [2]. وكذلك تشدد عقوبة الابن المعاند أو المارد إلى درجة الموت بواسطة الرجم " إذا كان لرجل ابن معاند ومارد لا يسمع لقول أبيه ولا لقول أمه ويؤدبانه فلا يسمع لهما يمسكه أبوه وأمه ويأتيان به إلى شيوخ مدينته وإلى باب مكانه. ويقولان لشيوخ مدينته. ابننا هذا معاند ومارد لا يسمع لقولنا وهو مسرف سكير، فيرجمه جميع رجال مدينته بحجارة حتى يموت " [3].

د – الزنى والاغتصاب:

الشريعتان كلتاهما تحاربان الفحشاء " لا تتزوج بغيا، إنها لا تنتشلك من ورطتك، ففى خصامك تتبذأ عليك، إذ ليس لها حياء ولا طاعة، وعليك، إن هى استولت على البيت أن تسرحها. إن فكرها مع الغريب. البيت الذي تدخله تخربه، وزوجها لا يتوفق " [4]، وتنهيان عن الزنى " لا تزن " [5] و " لا تشته امرأة قريبك " [6]، وهما تتشابهان في أحكامهما في هذا الباب إلى درجة يصعب معها التفريق في أيهما الأصل وأيهما الفرع لولا أن شريعة حمورابى هى الأقدم وبذلك تكون الأصل وشريعة التوراة هى الأحدث وبذلك تصبح الفرع، وحكمهما في هذا الباب على اختلاف أشكالهما هو الموت إما بالقتل أو الحرق أو الرجم أو الإلقاء في الماء (بمعنى الإغراق في النهر) وفى بعض الأحيان بالطرد (أى النفى).

فحسب شريعة حمورابى " إذا قبض على امرأة سيد مضطجعة مع سيد آخر، فيجب عليهم أن يوثقهما ويلقونهما في الماء (بمعنى النهر) ويمكن لزوج المرأة أن يبقى زوجه على قيد الحياة كما يمكن للملك أن يخلى أمته " [7]. و " إذا اختار

---

(1) المادة 195.

(2) (خر، 21: 15 و 17) راجع أيضا (تث، 20: 9).

(3) (تث، 21: 18 - 21).

(4) من الأدب البابلى راجع لطفى الخورى الدكتور محمود الأمين، " رسائل الآباء إلى الأولاد "، مكتبة النهضة، بغداد، 1963، الرسالة الأولى سطر 30 - 39 راجع نفس الرسالة باللغة الإنجليزية في:

Pritchard, "Ancient Near Eastern Tets", P. 436.

(5) (خر، 20: 14)، راجع أيضا (لا، 20: 1)؛ (مت، 19: 18).

(6) (خر، 20: 17).

(7) المادة 129.

سيد عروسا لابنه ودخل ابنه عليها ولكن بعدئذ ينام هو حجرها ويقبضون عليه فعليهم أن يوثقوا ذلك الرجل وأن يلقوا به في الماء (النهر) " [1].

و " إذا قبض على سيد مضطجعا في حجر زوج أبيه (زوجة الأب) التي ولدت أولادا فيجب طرده من بيت أبيه " [2]، و " إذا نام سيد في حجر أمه بعد والده (أى بعد وفاة والده) فعليهم أن يحرقونهما كليهما " [3]. و " إذا جامع رجل ابنته فعليهم أن يطردوا (أن ينفوا) ذلك السيد من المدينة " [4].

أما حسب شريعة التوراة " إذا وجد رجل مضطجعا مع امرأة زوجة بعل يقتل الاثنان الرجل المضجع مع المرأة والمرأة " [5]. و " إذا اضطجع رجل مع كنته فإنهما يقتلان كلاهما [6]. قد فعلا فاحشة [7]. دمهما عليهما " [8].

ولا توجد عقوبة محددة لمن كشف عورة أمه، أما " إذا اتخذ رجل امرأة وأمها فقد ارتكب رذيلة، بالنار تحرقونه وإياهما " [9]. و " لا تدنس ابنتك بتعريضها للزنى " [10]. ولا عقوبة محدودة في التوراة لمن زنى مع ابنته.

وتتخالف الشريعتان في كون الشريعة البابلية قد نظمت شؤون العائلة وحددت حقوق أفرادها وواجباتها وعلاقاتهم فيما بينهم [11]، بينما لا نجد في التوراة أية إشارة إلى مثل هذه الظاهرة الاجتماعية الحضارية المتقدمة.

وهما تتخالفان أيضا من حيث كون شريعة حمورابى لم تعالج مسألة اللواط ومضاجعة البهائم والوقوف أمامها لنزائها وقد انفردت شريعة التوراة بهذه

(1) المادة 155.
(2) المادة 158.
(3) المادة 157.
(4) المادة 154.
(5) (تث، 22: 22).
(6) (لا، 18: 15).
(7) (لا، 20: 12).
(8) (لا، 18: 7).
(9) (لا، 20: 14).
(10) (لا، 19: 31).
(11) المواد 127 - 195.

المسألة " لا تضاجع ذكرا مضاجعة امرأة. إنه رجس " [1] فـ " إذا اضطجع رجل مع ذكر اضطجاع امرأة فقد فعلا كلاهما رجسا، إنهما يقتلان، ودمهما عليهما " [2]، ولا تجعل مع بهيمة مضطجعك فتتنجس بها ولا تقف امرأة أمام بهيمة لنزائها، إنه فاحشة [3].

فـ " إذا جعل رجل مضطجعه مع بهيمة فإنه يقتل والبهيمة تميتونها. وإذا اقتربت امرأة إلى بهيمة لنزائها تميت المرأة والبهيمة. إنما يقتلان، دمهما عليهما " [4].

فهذا التخالف بين الشريعتين إن دل على شئ فإنما يدل على مدى التقدم الحضارى في المجتمع البابلى على قدمه والتردى والبدائية في المجتمع اليهودى على حداثته.

هـ – السرقة والنهب:

السرقة محظورة في كلتا الشريعتين " لا تجعل نفسك تغويك لارتكاب سرقة ما " [5]، حسب الآداب البابلية و " لا تسرق " حسب شريعة التوراة وهما تقومان على مبدأ التعويض وقد تصل شريعة حمورابى في بعض أحكامها إلى حد القتل أو قطع اليد، أما شريعة التوراة فلا تصل إلى مثل هذه الحدود في أحكامها [6].

فحسب شريعة حمورابى " إذا سرق شخص ثورا أو شاة أو حمارا أو خنزيرا أو قاربا يعود للإله أو القصر فإنه يعوضه بثلاثين مثلا، أما إذا كان المسروق يعود إلى مسكين فإنه يعوضه بعشرة أمثال. وإن لم يكن لديه التعويض الكافى فإنه يقتل بجنايته " [7]. " إذا قام سيد بالسرقة وقبض عليه أثناءها فإنه يقتل [8]. وكذلك " إذا سرق سيد ثروة تعود للإله أو القصر فإنه يعدم. وكذلك يعدم من يتقبل المسروقات من يده " [9]. وتخفف عقوبة القتل إذا كان المسروق زرعا أو

(1) (لا، 18: 22).
(2) (لا، 20: 12).
(3) (لا، 18: 22 - 23).
(4) (لا، 20: 15 - 16).
(5) راجع السطر 46 من الرسالة المشار إليها في رقم (77).
(6) (خر، 20: 15)، راجع أيضًا (خر، 21: 16)؛ (لا، 19: 11)؛ (مت، 19: 18).
(7) المادة 23 من شريعة حمورابى.
(8) المادة 22 من شريعة حمورابى.
(9) المادة 6 من شريعة حمورابى، راجع أيضا المواد 8، 9، 10، 11، 21، 25.

أكلا " إذا استأجر سيد سيدا وعينه على حقله وسلمه الأكل والبقر وتعهد بزرع الحقل، فإذا سرق هذا السيد الزرع والأكل ومسكت في يده فإن يده تقطع " (1).

أما حسب شريعة التوراة " إذا سرق إنسان ثورا أو شاة فذبحه أو باعه يعوض عن الثور بخمسة ثيران وعن الشاة بأربعة من الغنم، إن وجد السارق وهو ينقب فضرب ومات فليس له دم، ولكن إذا أشرقت عليه الشمس فله دم. إنه يعوض وإن لم يكن له بيع بسرقته، إن وجدت السرقة في يجده حية ثورا كانت أم حمارا أم شاة يعوض باثنين " (2).

ولا يقتصر الخلاف بين الشريعتين، شريعة حمورابى وشريعة التوراة على الخلاف في شدة أحكامها وإنما من حيث الشكل والمضمون، فشريعة حمورابى هى شريعة مدنية تتحلى بروحية من التشريع تعادل أرقى ما نجده في شرائع اليوم بينما تبقى شريعة التوراة شريعة كهنوتية تزج بالرب والكهنة في حل قضايا مدنية.

" إذا أعطى إنسان صاحبه فضة أو أمتعة للحفظ فسرقت من بيت الإنسان فإذا وجد السارق يعوض باثنين وإن لم يوجد السارق يقدم صاحب البيت دعواه إلى الله ليحكم هل مد يده إلى ملك صاحبه. في كل دعوى جناية من جهة ثور أو حمار أو شاة أو ثوب أو مفقود ما يقال إن هذا هو. تقدم إلى الله دعواهما. فالذى يحكم الله بذنبه يعوض صاحبه باثنين (3). و " إذا أخطأ أحد وخان خيانة بالرب وجحد صاحبه وديعة أو أمانة أو مسلوبا أو اغتصب صاحبه، أو وجد لقطة وجحدها وحلف كاذبا على شئ مما يفعله الإنسان مخطئا به. فإذا أخطأ يرد المسلوب الذي سلبه أو المغتصب الذي اغتصبه أو الوديعة التي أودعت عنده أو اللقطة التي وجدها، أو كل ما حلق عليه يعوضه برأسه ويزيد عليه خمسة إلى الذي هو له. يدفعه له يوم ذبيحة إثمه، ويأتى إلى الرب بذبيحة لائمة كبشا صحيحا من الغنم بتقويمك ذبيحة إثم إلى الكاهن، فيكفر الكاهن عنه أمام الرب. فيصفح عنه في الشئ الذي فعله مذنبا به " (4). والمذنب يقدم ذبيحة إثم كبشا صحيحا من الغنم والكاهن يحصل على أطايب الذبيحة فيكفر عنه والرب مجبر على الصفح وتنتهى

(1) المادة 253 من شريعة حمورابى.
(2) (خر، 22: 1 - 4).
(3) (خر، 22: 7 - 9).
(4) (لا، 5: 4 - 7).

القصة بلا غالب ولا مغلوب.

و – اتهام امرأة أو فتاة بالفحشاء بغير إثبات:

إن التشابه في العقوبة التي تفرضها كل من الشريعتين في هذا الباب واضح وجلي فحسب شريعة حمورابى " إذا ما نسب شخص إلى امرأة الفحشاء ولكنه لم يستطع إثبات ذلك فيجب عليهم جلب ذلك الرجل أمام القضاة الذين يعلمون جبينه قصا " (1) أما شريعة التوراة فإنها تترك إلى شيوخ مدينته أمر تأديبه وتغريمه بمقدار من الفضة (2).

ز – الاتهام الكاذب والشهادة الكاذبة:

لقد نهت الآداب العامة عند البابليين عن قول ما ليس للإنسان به علم بل وحتى عن إعطاء النصيحة الكاذبة، " لا تقل ما ليس لك به علم ولا تعط نصيحة كاذبة " (3)، وجعلت من مخالفها خارجا على القانون فجاءت شريعة حمورابى لتفرض عقوبات صارمة بحث كل من يتهم الغير كذبا " إذا ما اتهم سيد سيدا وأقام عليه دعوى بالقتل ولكنه لم يستطع إثباتها فإن ذلك السيد يعدم " (4). وكذلك يعدم من يدلى بشهادة كاذبة " إذا أدلى سيد بشهادة كاذبة في دعوى ما ولم تثبت صحتها فإن كانت تلك الدعوى تتعلق بحياة فإن ذلك السيد يعدم " (5).

وكذلك نهت التوراة في أماكن متفرقة وعديدة عن شهادة الزور وقول الكذب واعتبرته من صلب شريعتها " لا تشهد على قريبك شهادة زور " (6)، و " لا تقبل خبرا كاذبا، ولا تضع يدك مع المنافق لتكون شاهد ظلم " (7) و " ابتعد عن كلام الكذب " (8). وقد أخذت في أحكامها على كل من يخرج على هذه التقاليد بمبدأ " السن بالسن، والعين بالعين... " فـ " إذا قام شاهد زور على إنسان ليشهد عليه بزيغ يقف الرجلان اللذان بينهما الخصومة أمام الكهنة والقضاة الذين يكونون في

(1) المادة 127.
(2) (تث، 22: 13 - 19).
(3) راجع نفس الرسالة الواردة في الرقم 79 سطر 5.
(4) المادة الأولى من شريعة حمورابى.
(5) المادة الثالثة من شريعة حمورابى راجع أيضا المادة 11.
(6) (خر، 20: 16)؛ (تث، 5: 20).
(7) (خر، 23: 1).
(8) (خر، 23: 7)؛ راجع أيضا (مز، 27: 13، 35: 11).

تلك الأيام، فإذا فحص القضاة جيدا وإذا الشاهد شاهد كذب قد شهد بالكذب على أخيه فافعلوا به كما نوى أن يفعل بأخيه... ولا تشفق عينك، نفس بنفس، عين بعين، سن بسن، يد بيد، رجل برجل " [1]. وهى لم تعالج مسألة الاتهام الكاذب ولكن يبقى بالإمكان الأخذ بنفس هذا المبدأ قياسا.

ومما لابد من الإشارة إليه هنا هو أنه كما سبق وأشرنا إليه مرارا أن الشريعة التوراتية تبقى شريعة كهنوتية عنصرية.

ح – السحر وتعاطيه:

السحر محظور بحسب الشريعتين أما شريعة حمورابى فحكمها " على الساحر بأن يلقى في النهر فإذا أثبت النهر أنه برئ من التهمة وخرج سالما فإن الذي اشتكى عليه بتهمة السحر يعدم " [2]، بينما تقضى شريعة التوراة بقتل الساحر " لا تدع ساحرة تعيش " [3]، و " إذا كان في رجل أو امرأة جان أو تابعة فإنه يقتل، بالحجارة يرجمونه، دمه عليه " [4] وقد نهت التوراة في أماكن متعددة منها عن السحر وتعاطيه [5].

ط – الديون وكيفية استيفائها:

أجازت الشريعتان، البابلية وشريعة التوراة، بيع أحد أفراد العائلة سدادا لدين استحق ولم يكن بمقدور المدين سداده، فحسب شريعة حمورابى " إذا حان الاستحقاق (استحقاق الدين) على سيد وباع زوجه أو ابنه أو ابنته وارتبط هو نفسه بالخدمة فيجب عليهم أن يعملوا في بيت من اشتراهم أو الدائن ثلاث سنوات

---

(1) (تث، 19: 16 - 21).
(2) المادة 2 من شريعة حمورابى.
(3) (خر، 22: 18).
(4) (لا، 20: 27).
(5) " لا تلتفتوا إلى الجان والتوابع "، (لا، 19: 31)، " والنفس التي تلتفت إلى الجان والتوابع لتزنى وراءها اجعل وجهى ضد تلك النفس واقطعها من شعبها "، (لا، 20: 6).
" لا يوجد فيك من يجيز ابنه أو ابنته في النار ولا من يعرف عرافة ولا عائق ولا متفائل ولا ساحر ولا من يرقى رقية ولا من يسأل جانا أو تابعة، ولا من يستشير الموتى "، (تث، 18: 10 - 11).
راجع كذلك في هذا الموضوع (2 مل، 23: 24)؛ (أى، 27: 9 - 10).

وتعاد لهم حريتهم في السنة الرابعة " [1]. وهذا قول صراح لا لبس فيه يشمل جميع المواطنين لا فرق بين مواطن وآخر، أما التوراة فقد أخذت بذلك نصا ومعنى وإن كانت زادت في عدد سنوات الخدمة، ولكن بعد أن خصته بالعبرانى دون الأجنبى " إذا اشتريت عبدا عبرانيا فست سنين يخدم وفى السابعة يخرج حرا مجانا. إن دخل وحده فوحده يخرج، إن كان بعل امرأة تخرج امرأته معه. إن أعطاه سيده امرأة وولدت له بنين أو بنات فالمرأة وأولادها يكونون لسيده ويخرج وحده " [2].

فالعبد العبرانى ومثله الأمة العبرانية لا يسترقان وإنما يخرجان في سنة اليوبيل على عكس الأجنبى الذي يسترق ويدخل في أملاك سيده يتوارثه الخلف عن السلف كأى متاع آخر " وإذا افتقر أخوك عندك وبيع لك فلا تستعبده استعباد عبد، كأجير كنزيل يكون عندك. إلى سنة اليوبيل يخدم عندك. ثم يخرج من عندك هو وبنوه معه ويعود إلى عشيرته، وإلى ملك آبائه يرجع، لأنهم عبيدى الذين أخرجتهم من أرض مصر، لا يباعون بيع العبيد، لا تتسلط عليه بعنف. وأما عبيدك وإماؤك الذين يكونون لك فمن الشعوب الذين حولكم، منهم تقتنون عبيدا وإماء، وأيضا من أبناء المستوطنين النازلين عندكم منهم تقتنون ومن عشائرهم الذين عندكم الذين يلدونهم في أرضكم فيكونون ملكا لكم. وتستملكونهم لأبنائكم من بعدكم ميراث ملك، تستعبدونهم إلى الدهر، وأما أخوتكم بنى إسرائيل فلا يتسلط إنسان على أخيه بعنف، وإذا طالت يد غريب أو نزيل عندك وافتقر أخوك عنده وبيع للغريب المستوطن عندك أو لنسل عشيرة الغريب، فبعد بيعه يكون له فكاك، يفكه واحد من إخوته، أو يفكه عمه أو ابن عمه أو يفكه واحد من أقرباء جسده من عشيرته أو نالت يده يفك نفسه، فيحاسب شاريه من سنة بيعه له إلى سنة اليوبيل ويكون ثمن بيعه حسب عدد السنين. كأجير يكون عنده. إن بقى كثير من السنين فعلى قدرها يرد فكاكه من ثمن شرائه، وإن بقى قليل من السنين إلى سنة اليوبيل يحسب له وعلى قدر سنيه يرد فكاكه، كأجير من سنة إلى سنة يكون عنده، لا يتسلط عليه بعنف أمام عينيك، وإن لم يفك بهؤلاء يخرج في سنة اليوبيل هو وبنوه معه، لأن بنى إسرائيل لى عبيد، هم عبيدى الذين أخرجتهم من أرض مصر " [3].

---

(1) المادة 117 من شريعة حمورابى.
(2) (خر، 21: 2 - 4).
(3) (لا، 25: 39 - 55).

و " إذا بيع لك أخوك العبرانى أو أختك العبرانية وخدمتك ست سنين ففى السنة السابعة تطلقه حرا من عندك، وحين تطلقه من عندك فلا تطلقه فارغا، تزوده من غنمك ومن بيدرك ومن معصرتك، كما بارك الرب إلهك تعطيه. لا يصعب عليك أن تطلقه حرا من عندك لأنه ضعفى أجرة الأجير خدمك، ست سنين " [1]، و " إذا باع رجل ابنته أمة فلا تخرج كما يخرج العبيد " [2].

(1) (تث، 15: 6 - 14 و 18).
(2) (خر، 21: 7 - 10).

وكذلك شرعت التوراة بالنسبة لاسترداد الديون في سنة الإبراء، العبراني يبرأ وأما الأجنبى فلا " في آخر سبع سنين تعمل إبراء، وهذا هو حكم الإبراء، يبرئ كل صاحب دين يده مما أقرض صاحبه لا يطالب صاحبه ولا أخاه لأنه قد نودى بإبراء الرب، الأجنبى تطالب، أما ما كان لك عند أخيك فتبرئه يدك منه " (1).

ى - تعاطى الربا:

كان الربا معروفا عند البابليين ومعمولا به وقد حددته شريعة حمورابى بحوالى 20% " إذا أقرض تاجر حبوبا بفائض، فإنه يستسلم ستين قوا من الحبوب لكل كور كفائض، وإذا أقرض دراهم بفائض فإنه يستلم سدس الثقل ست حبات لكل ثقل من الفضة كفائض " (2)، ولما كان الكور يعادل ثلثماية قو وكل ثقل يعادل ماية وثمانين حبة فإن الفائض يكون 20%، أما التوراة فإنها تحرم تعاطى الربا بالنسبة للإسرائيلى وتحلله للأجنبى " إذا أقرضت فضة لشعبى الفقير فلا تكن له كالمرابى، لا تضعوا عليه ربا " (3) و " إذا افتقر أخوك وقصرت يده عندك فاعضده غريبا أو مستوطنا فيعيش معك، فضتك لا تعطه بالربا وطعامك لا تعط بالمرابحة " (4) و " لا تقرض أخاك بربا، ربا فضة أو ربا طعام، أو ربا شئ ما مما يقرض بربا، للأجنبى تقرض بربا ولكن لأخيك لا تقرض بربا " (5).

ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو، كما أسلفنا إلى ذلك مرارا، كم تتجلى العنصرية التي كانت تسيطر على كتبة التوراة عندما قاموا بتدوينها بعد عدة قرون على وفاة موسى عليه السلام بوضوح فبينما نجد التوراة تنهى عن تعاطى الربا إذ تخصه للإسرائيلى (بمعنى اليهودى) وتقره بالنسبة للأجنبى.

ك - التعويض عن الأضرار:

لقد سارت الشريعتان على مبدأ التعويض وأخذتا به وأنهما تخالفتا في تحديد نوع التعويض في كل منهما، ولقد عالجت شريعة حمورابى في كثير من موادها مسألة التعويضات الواجب دفعها في القضايا التجارية والزراعية مثل استعارة

(1) (تث، 15: 1 - 2).
(2) المادة 88 من شريعة حمورابى.
(3) (خر، 22: 25).
(4) (لا، 25: 35 - 37).
(5) (تث، 23: 9 - 20).

الأشياء والمواد الزراعية والدواب التي يعطيها المستفيد أو يلحق بها ضررا كالكسر أو الموت أو السرقة أو النهب، فشريعة حمورابى جعلت على سبيل المثال التعويض الواجب في حالة رعى حقل ما أن يعطى الراعى إلى صاحب الحقل عشرين كورا [1] من الحبوب لكل ثمانية عشر أيكو من الأراضى الزراعية [2]، أما التوراة فتكتفى بتحديد نوع التعويض دون الكمية " إذا رعى إنسان حقلا أو كرما وسرح مواشيه فرعت من حقل غيره فمن أجود حقله وأجود كرمه يعوض " [3].

وقد وضعت الشريعة البابلية أربع مواد [4] تقتضى بالتعويض عن الأضرار التي تحدث بالزروع من جراء الغرق والتى يسببها أشخاص نتيجة إهمالهم تقوية السدود ومراقبة جداولهم. ولعدم وجود أعمال رى في كنعان ولكون زروعها مهددة بخطر الحريق بالدرجة الأولى فقد تضمنت شريعة التوراة مادة تقضى بالتعويض عن الأضرار التي يحدثها أشخاص نتيجة حرقهم لأكداس الغلة بسبب إهمالهم أو تعمدهم إيقاد النار فيها [5].

ل – تعدد الزوجات:

أجازت الشريعتان الزواج بأكثر من امرأة، فحسب شريعة حمورابى " إذا تزوج شخص امرأة ولم تنجب أولادا فلهذا الرجل أن يأخذ جارية كامرأة ثانية، ولا يجوز أن تتساوى مع الزوج الأولى إلا إذا أنجبت أولادا [6]. وقد نظمت شريعة حمورابى مراسم الزواج وشعائره ومما قالت به في الزواج الثانى وجوب نصب الزوج الثانى عرشا في الهيكل للزوج الأولى وقيامها بغسل رجليها قبل بدء مراسم زواجها. ومنه جاء تقليد غسل العروس قبل انتقالها من بيت أبيها إلى بيت الزوجية هذا التقليد الذي يعود إلى زمن حمورابى وما يزال ساريا حتى يومنا

(1) الكور نوع من المكاييل السومرية ويقابل عندنا الغرفة ويعادل حوالى 180 حقة (8.50 بوشل): والأيكو من مقاييس المساحات البابلية ويعادل حوالى 0.875 من الفدان.
(2) المادة 57 من شريعة حمورابى.
(3) (خر، 23: 5).
(4) المواد 53 - 56.
(5) (خر، 23: 6).
(6) المادة 137 من شريعة حمورابى.

هذا، وكذلك نظمت حقوق كل واحدة من الأزواج في الأولاد [1].

أما التوراة فإنه لم يرد فيها نص صريح يقول بجواز تعدد الزوجات وإنما أوردت عدة حوادث تعددت فيها الزوجات جعلت منه عرفا له صفة القانون، فكان أول من اتخذ له زوجين في وقت واحد بحسب التوراة هو لامك بن متوشائيل بن محديائيل بن عيراد بن حنوك بن قايين " واتخذ لامك لنفسه امرأتين " [2] كان هذا قبل الطوفان، أما بعد الطوفان فكان أول من اتخذ له امرأتين هو إبرهيم عليه السلام تزوج هاجر المصرية حيث أخذت سارای امرأة إبرام هاجر وأعطتها لإبرام رجلها زوجة له [3]. ومن ثم " عاد إبراهيم فأخذ زوجة اسمها قطورة " [4]. أما حفيده عيسو فقد جمع بين خمس زوجات من الكنعانيات هن يهوديت بنت بيرى الحثى وبسمة بنت إيلون الحثى[5]، وعدا بنت إيلون الحثى وأهو ليبامة بنت عنى بنت صعبون، وبسمة بنت إسماعيل أخت نبايوت [6]، وتزوج يعقوب (إسرائيل) من ابنتى خاله لابان وراحيل ومن جاريتهما زلفة وبلهة [7]، وكان لجدعون سبعون ولدا خارجين من صلبه لأنه كان له نساء كثيرات وسريته التي في شكيم ولدت له ابنا أسماه إبيمالك " [8]. وجدعون هذا هو قاضى إسرائيل عبدون بن هليل الفرعوني فقد كان له " وكان له أربعون ابنا وثلاثين حفيدا " [9].

وكان لرمتايم صوفيم وهو أبو صموئيل امرأتان اسم الواحدة حنة والأخرى فنة[10]، والمتعارف عليه عند العامة أن داود الملك وهو نبى أيضا تزوج تسعا وتسعين امرأة وسرية وأوصل عددها إلى المائة بزواجه من زوج أوريا الحثى الذي قتله، وإن لم تقل التوراة صراحة بذلك ولكنها تقول أن داود

(1) المواد 144 - 147 من شريعة حمورابى.
(2) راجع (تك، 4: 17 - 19).
(3) (تك، 16: 3).
(4) (تك، 25: 1).
(5) (تك، 26: 34).
(6) (تك، 32: 2 - 3).
(7) راجع (تك، 29: 21 - 30، ص 30).
(8) (قض، 8: 30 - 31).
(9) (قض، 12: 14).
(10) (1 صم، 1: 1 - 2).

ترك عشرا من نسائه لحفظ البيت عند هربه من وجه أبشالوم ولده [1]، وتقول أيضا: " وأخذ داود سرارى ونساء من أورشليم " [2] وقد سمت من نسائه ميكال بنت شاول [3] وإبيجايل أرملة نابال وأخينوعم من يزرئيل [4] وملكة بنت تلماى وحجيث وإبيطال عجلة [5] وبتشبع بنت اليعام امرأة أوريا الحثى [6] وكانت آخر زوجة لداود ذكرتها التوراة هى أبيشج الشمونية [7] أما بالنسبة لسليمان فتقول التوراة: " وأحب سليمان نساء غريبة كثيرة مع ابنة فرعون مؤابيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحيثيات وكانت له سبع مئة من النساء السيدات وثلاثة مئة من السرارى " [8].

ولاشك في أن ورود مثل هذه الأحداث من تعدد الزوجات في التوراة يعطيها صفة القانون النافذ، وبما أن التوراة أقرت تعدد الزوجات فكان لابد لها من تنظيم حقوق أولاد الزوجات " وإذا كان لرجل امرأتان إحداهما محبوبة والأخرى مكروهة فولدتا له بنين المحبوبة والمكروهة، فإن كان الابن البكر للمكروهة، فيوم يقسم لبنيه ما كان يحل له أن يقدم ابن المحبوبة بكرا على ابن المكروهة البكر بل يعرف ابن المكروهة بكرا " [9] وإن كانت التوراة قد تجاوزت هذه القاعدة في ولدى داود أدونيا وسليمان [10].

وفيما يلى المواد الواردة في الشريعة البابلية [11] وما يقابلها من أحكام

---

(1) (2 صم، 20: 3).
(2) (2 صم، 5: 13).
(3) (1 صم، 18: 27).
(4) (1 صم، 25: 42 - 43)، راجع أيضا (1 صم، 30: 18).
(5) (2صم، 3: 3 - 5).
(6) (2 صم، ص 11، ص 12).
(7) (1 مل، 1: 3 - 4).
(8) (1 مل، 11: 1 و3).
(9) (تث، 21: 15 - 17).
(10) (1 مل، 1: 5 وما بعده).
(11) لقد كانت هناك شرائع أخرى عدا شريعة حمورابى، فقد عثر على شريعتين سومريتين أقدم من شريعة حمورابى إحداهما ترجع إلى عهد الملك أورنمو مؤسس سلالة أور الثالثة (2113 - 2096 ق.م) والثانية ترجع إلى عهد لبيت عشتار ملك أيسن (1934 -

توراتية مشابهة بشكل محسوس فيما يحمل المرء على أن ينظر إلى هذه المواد والأحكام وكأنها تعود إلى مصدر واحد.

مواد الشريعة البابلية	الأحكام المقابلة في شريعة التوراة
رقم 7	(لا، 6: 2 - 7)
رقم 8	(خر، 22: 11)
رقم 14	(خر، 21: 6)
رقم 21	(خر، 22: 2 - 4)
رقم 53 - 56	(خر، 21: 6)
رقم 57	(خر، 22: 5)
رقم 117 - 119	(خر، 22: 2 - 11)
رقم 125	(خر، 22: 7 - 9 و 12)
رقم 155	(لا، 20: 10)
رقم 157	(لا، 20: 12)
رقم 195	(لا، 20: 11)
رقم 196 - 197	(خر، 21: 24 و 25)
رقم 200	(لا 24: 20)
	(تث، 19: 21)
رقم 199	(خر، 21: 26 - 27)
رقم 206	(خر، 21: 18 - 19 و 12 - 13)
رقم 209 - 210	(خر، 21: 22 - 25)
رقم 245	(خر، 22: 14 - 15)
رقم 250	(خر، 21: 28)

1924 ق.م) كما عثر على شريعتين ساميتين إحداهما أقدم من شريعة حمورابى وهى الشريعة المكتشفة في تل حرمل والمعروفة بشريعة مملكة أشنونا (نحو 1900 ق.م)، والثانية دونت في القرن التاسع قبل الميلاد من العهد الأشورى، وقد عثر أيضا على شريعة للحيثيين ترجع إلى سنة 1350 ق.م، والمهم في هذه الشرائع أن بعض موادها تقابله مواد مشابهة في شريعة حمورابى وشريعة التوراة.

انظر:

G.A Barton m "Archaeology and the Bible", 1927.

رقم 251 و 252 (خر، 21: 29 و 32) [1]

ويقول المؤرخ الشهير ويلز Wells أن ثمة نصوصا من المصادر البابلية التي عثر عليها تعد مرجعا هام لقصة شمشوم من قصص العهد القديم [2] كما أن ترانيم التوبة البابلية قد اقتبست في بعض أسفار التوراة [3].

وخلاصة القول: أن الدارس لكلا الشريعتين يجد نفسه أمام حقائق مذهلة وهى أن كتبة التوراة كانوا قد درسوا شريعة حمورابى أثناء وجودهم في بابل أيام السبى فأخذوا عنها ما وجدوه ملائما لهم وأضافوا إليه ما يلائم مجتمعهم البدائى ويحارب مفاسدهم بقصد تنزيه شعبهم، ولكن بعد أن ملؤوا التوراة بمباذلهم التي تمس جميع أبطالهم في التوراة، وهذا إن دل على شئ إنما يدل على الشريعة التوراتية التي بين أيدينا لم يضعها النبى موسى لأنه لم يكن يدين من سبقه وأن الشريعة التي نادى بها النبى موسى تنحصر في الوصايا العشر وأنه وضعها لجميع الأمم. أما كتبة التوراة الذين جاءوا من بعده هم الذين دبجوها بقصد تنزيه أرومتهم فأوقعوا التوراة في كثير من التناقض.

14 ـ التلمود في ضوء المدونات الآثارية:

(1) انظر المراجع التالية التي تبحث في هذا الموضوع:

G.A. Barton, "Archaeology and the Bible", 5 th ed. 1927, pp. 340 - 368; A.T. Clay, "Light on the Old Testament form Babel". 1907, pp 223 - 234; F.Kenyon, "The Bibble and Archaeology", pp. 118 - 125; D.D. Luckenbill and Ed. Chiera, "The Origin an History of =Hebrew Law" 1931; L.W. Waterman, "Pre-Israelite Laws in the book of the Convenant", AJSLL, Vol. 38, 1921 - 22, pp. 36 - 62;= S.A. Cook. "The Laws of Moses and the Code of Hammurabi", London 1903; W.W. Daveis, "The Codes of Hammurabi and Moses", Cincinnati, 1905; C.H.W. Johns, "The Relations between the laws of Babylonia and the Law of the Hebrew Peoples", 1914.

(2) " معالم تاريخ الإنسانية "، الترجمة العربية، الكتاب الرابع، ص 291.

(3) عصام الدين حنفى، " محنة التوراة "، ص 57.

ويجد القارئ معلومات واسعة عن موضوع ديانة بابل وكذلك أساطيرها وتأثير ذلك في نشوء الدين اليهودى وتطوره في كتاب هومر سميث، " الإنسان وآلهته "، المكتبة العمومية 1960.

W.H. Smith, "Man and his Gods", Universal Library, 1956.

وكما أن معظم مدونات التوراة مستقاة من كتابات قديمة سبقتها، كذلك نجد تشابها بين مدونات التلمود البابلى وبين كتابات السومريين والبابليين، وخاصة ما يتعلق منها بشؤون الرى والزراعة، ففى التلمود شروح وتعاليم وإرشادات تتعلق بالزراعة المرتكزة على الإرواء وعلاقة المزارعين بعضهم مع بعض من حيث الواجبات والحقوق، وهذه موجهة بالدرجة الأولى إلى اليهود الذين كانوا يمارسون مهنة الزراعة في بلاد بابل، فقد تناول التلمود شرح طرق الإرواء والزراعة من ضمن ذلك الحراثة والإسقاء والحصاد ومواسم الزراعة مع ذكر أنواع المحاصيل الزراعية الشتوية والصيفية، كما تناول بالشرح طريقة زراعة النخيل وتربية المواشى وإنشاء المراعى ونظام الأراضى وضرائب الأرض والماء.

ولما كانت الحياة الزراعية والعلاقات الاقتصادية والتجارية في بلاد بابل تستند بالدرجة الأولى على مشاريع الرى فقد تناول التلمود بحث كيفية حفر الجداول وتنظيم شبكة الإرواء سبحا ورفعا وصيانتها ومراقبتها، ثم توزيع المياه بين الزراع بصورة عادلة. وكان تطهير الأنهر من ترسبات الغرين من أهم الأعمال التي كان أكثرها يقع على كاهل اليهود في بلاد بابل، فقد سكبوا على شواطئها دموعا سخية لما كانوا يقاسونه من الإرهاق في هذه الأعمال المضنية (1).

وهناك دلائل لا تقبل الجدل والشك في أن أكثر ما ورد في التلمود من شروح وإرشادات تتعلق بالزراعة المرتكزة على الرى مستقاة من كتابات قديمة سابقة لعهد التلمود، فقد عثر المنقبون بين أطلال مدينة نيبور على تقويم لأحد المزارعين السومريين فيه نصائح وإرشادات يوجهها هذا المزارع إلى ولده حول أصلح الطرق التي يجب اتباعها في تنظيم وإدارة شئون مزرعته كى يحصل على أجود منتوج وأوفر محصول، ومن ضمن ذلك طريقة إعداد الأرض وإنجاز

(1) الحاخام نيومان، " حياة اليهود الزراعية في بابل " طبعة مطبعة جامعة أوكسفورد سنة 1923، وعنوانه بالإنكليزية:

Rabbi J.Newman, "The Agricultural Life of the Jews in Babylonia". 1932.

انظر أيضًا:

S.Daicbes, "The Jeus in Babylonia", 1910.

عملية الحرق ونثر البذور وتنظيم الرى والإعداد لحصد الزرع بعد نضوجه، ثم دراسته وذروه وتجميع المحصول وقد دونت هذه الوثيقة التي يرقى تاريخها إلى ما قبل أكثر من أربعة آلاف عام على رقيم من الطين يتكون من 108 أسطر بالخط المسمارى باللغة السومرية، وهى تعد أقدم تقويم زراعى في تاريخ الحضارة حول الأساليب الفنية للرى والزراعة المتبعة في تلك الأزمنة القديمة. ومما لا شك فيه أن هذه القواعد في تنظيم الرى والزراعة في الحقول كانت معروفة لدى السومريين والساميين الأوائل قبل ذلك العهد وظلت معروفة لدى البابليين في العصور التي تلت حيث عثر على قطع من هذه الموسوعة نقلها البابليون عن أسلافهم [1].

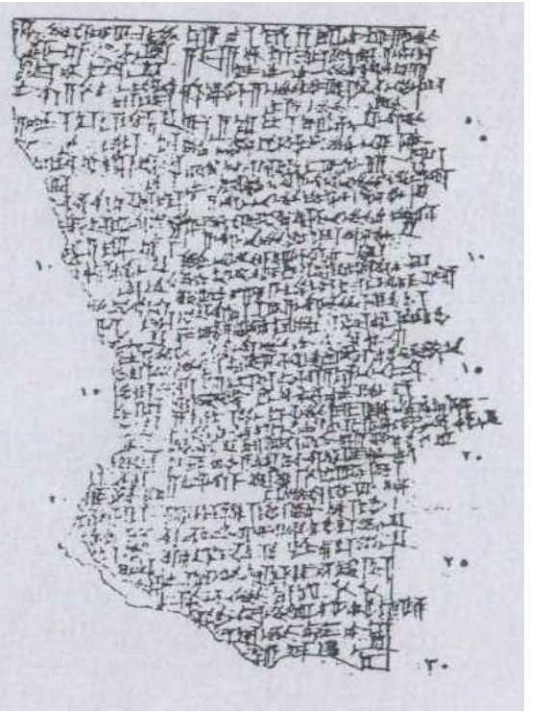

التصوير رقم (78)

أقدم تقويم زراعى في تاريخ البشرية

أما ما ورد في التلمود حول العناية ببساتين النخيل فقد ظهر مثله في

(1) المؤلف، " الرى والحضارة في وادى الرافدين "، ص 210 - 225.

المدونات السومرية والبابلية، إذ عنى السومريون والبابليون في زراعة النخيل، فقد أتقنوا الطرق الناجعة في زراعة النخيل، وكانوا أول من مارس تلقيحها.

ولاشك في أنه كان لأشجار النخيل دور اقتصادى هام في ضمان استمرار حياة المستوطنين الأوائل في هذه المنطقة لعديد فوائدها واستعمالاتها. ففى وثيقة سومرية ترجع إلى عهد الملك شوسن أور الثالثة (1978 - 1970 ق.م) إشارة إلى حقل من نخيل التمر يعود إلى معبد إله بلدة " أوما " [1] " معنى بربه كل العناية "، وقد قسم هذا الحقل إلى ثمانى مجموعات من النخيل وصنف كل منها بحسب عمر النخيل، المثمر وغير المثمر، وتشير الوثيقة إلى كميات التمر التي ينتجها الحقل بالحجم لا بالوزن كما هى العادة المتبعة في وقتنا الحاضر. وقد خصصت عدة مواد في شريعة حمورابى (1792 - 1750 ق.م) تتناول زراعة النخيل والمعاملات الخاصة بها، فهى تفرض غرامة كبيرة على من يقطع شجرة نخل [2]، وتحدد علاقة الفلاح بالمالك [3]، فـ " إذا أعطى رجل بستانه إلى فلاح للتلقيح والعناية به فعلى الفلاح أن يسلم ثلثى حاصل البستان إلى صاحبها طوال مدة شغله في البستان ويأخذ لنفسه الثلث، وإذا أهمل البستانى ولم يلقح البستان وسبب تقليل الحاصل فعليه أن يؤدى إيجار البستان على أساس البساتين المجاورة " [4].

يتضح مما تقدم أن اليهود نقلوا الحضارة البابلية أثناء وجودهم في السبى وما بعده وسرقوا جميع الحضارات الأخرى ونسبوها لأنفسهم بعد أن ردوها على إرادة إلهية. وفى ذلك يقول المؤرخ الشهير ويلز: " والحقيقة المجردة المستخلصة من رواية الكتاب المقدس هى أن اليهود ذهبوا إلى بابل همجا وعادوا منها متمدنين، خرجوا جمهورا مختلطا ومنقسما على نفسه، لا يربطه وعى ذاتى وطنى، وعادوا بروح قومية شديدة وجنوح إلى الاعتزال، ذهبوا وليس لهم أدب مشترك معروف بينهم كافة وعادوا ومعهم الشطر الأكبر من مادة (العهد القديم)

(1) " أوما " مدينة سومرية تعرف أطلالها محليا باسم " تل جوخة " وتقع على الجانب الأيمن من شط الغراف الحالى في الجهة الشمالية الغربية من مدينة الشطرة الحالية، وتاريخ هذه المدينة ملئ بحوادث سياسية وعسكرية وخاصة حروبها غير المنقطعة مع جارتها " لكاش " بسبب النزاع على الأراضى والرى.

(2) المادة 59.

(3) المادتين 64، 65.

(4) المؤلف، " الرى والحضارة في وادى الرافدين "، ص 45 - 47.

بعد أن عاشوا في ذلك الجو الباعث على النشاط الذهنى في العالم البابلى، فإن العقل اليهودى ما لبث أن خطا خلال مدة الأسر خطوة عظيمة إلى الأمام. وعندما عاد اليهود إلى أورشليم لم يكن قد اكتمل لهم غير الأجزاء الخمسة الأولى المسماة بالبنتاتيك، ولكن لم يكن هناك مفر من أن يتلو ذلك تجميع سائر الكتب التاريخية "، ويضيف ويلز إلى ذلك قوله: " دام الأسر البابلى قرابة خمسين عاما ويعتقد كثير من الأعلام الثقات أن اليهود اختلطوا بالبابليين خلال تلك الفترة اختلاطا عنصريا وفكريا عظيما " (1).

15 ـ المدونات الأوغاريثية الكنعانية والتوراة:

ولقد كشفت المدونات الكنعانية التي عثر عليها في أوغاريت (رأس الشمرة) شمال مدينة اللاذقية بكل جلاء أن أكثر ما دونه اليهود في التوراة من القطع الأدبية من مزامير وأشعار وتراتيل ترجع إلى أصل كنعانى، فهناك تعابير وردت في أسفار المزامير والأمثال ونشيد الأنشاد يظهر فيها التشابه واضحا مع التعابير الأوغاريثية الكنعانية، ومن أمثلة ذلك أن الأخيرة تنعت إلهها " بعل " براكب السحب في حين أن الأولى تطلق على إلهها " يهوه " (الراكب في قفار) (2).

وقد جاء الزموران 18 و 68 من مزامير التوراة (وهما مكرران في سفر صموئيل الثانى الإصحاح الثانى والعشرين) بنفس التعابير الواردة في المدونات الكنعانية. وقد وجد مثل هذا التشابه في سفرى أيوب ومزامير (3) حيث تصف التوراة فيهما صوت الإله " يهوه " بالرعد (اسمعوا سماعا رعد صوته والزمزة الخارجة من فيه) وهو نفس الوصف الوارد في الكتابات الكنعانية التي تنعت صوت إلهها " بعل " بالرعد أيضا. وقد جاء المزمور 29 بأجمعه مطابقا لما ورد في المدونات الأوغاريثية في ترتيلة كنعانية للإله " بعل " كما أن تسمية لوياثان بالحية المتحوية (4) وردت هى نفسها في الكتابات الكنعانية (5)، ومقدار التراتيل الكنعانية التي عثر عليها في أوغاريت تساوى نصف حجم كتاب المزامير في

(1) ويلز، " تاريخ معالم الإنسانية "، الكتاب الرابع، ص 290 - 291، 214.
(2) (مز، 68: 4).
(3) (أى، 37: 2 - 5)، (مز، 29: 3 - 5، 104: 7).
(4) (أش، 27: 1).
(5) P.Hitti, "History of Syria", pp. 128, 140.

التوراة [1]، كما أن القصة التي وردت في سفر أيوب وجد ما يشابهها تماما في الكتابات البابلية، ويعتقد أن القصة مأخوذة من أصل نص أدومى حيث ورد فيها ذكر أحد ملوك أدوم القدماء باسم يوباب بن زارح [2]، والمرجح عند الباحثين أن صاحب سفر أيوب الوارد في التوراة عربى الأصل، إذ يعتقد أن هذا الكتاب قد نظم في الأصل شعرا عربيا في القرن العشرين قبل الميلاد على أثر نزوح الساميين العرب من جزيرة العرب إلى بلاد ما بين النهرين، ثم ترجمه الكهنة اليهود إلى العبرانية وعد من الأسفار المقدسة وضاع أصله العربى، فإذا صحت عربية سفر أيوب يكون العرب أسبق الأمم إلى قرض الشعر، أى قبل إلياذة هوميروس بألف سنة [3].

وفى بحث لأدولف أرمان (A. Hermann) تقدم به إلى المجمع العلمى البروسى سنة 924 تحت عنوان " مصدر مصرى لأمثال سليمان " شرح لاكتشاف مؤلف لحكيم مصرى مدون على أوراق البردى جاء على شكل نصائح وحكم في ثلاثين بابا، وقد تكررت هذه الحكم نفسها بشكل واضح في سفر الأمثال من العهد القديم [4].

16 ـ التقاليد التي اقتبسها اليهود من القدماء:

ومن التقاليد التي مارسها القدماء وأخذها اليهود عنهم وأدخلوها في فرائضهم الختان مثلا، فقد اكتشف العلماء أن المصريين كانوا يمارسون الختان في منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد، أى قبل ظهور أتباع موسى بألف وثلاث مئة عام [5]، وقد ثبت أن عادة الختان كانت شائعة عند بعض القبائل في الجزيرة العربية منذ

---

(1) J.Pritchard, "Archaeology and the Old Testament", p 110.

(2) (تك، 36: 33 - 34)، راجع أيضًا في هذا الموضوع المراجع التالية:

M.Jastrow, "A Babylonia Parallel to the Story of Job". J.B.L., Vol. XXV, Part II, 1906, pp. 135 - 191. R.W. Rogers, "Cuneiform Pararllels to the Old Testament", N.Y, 1912, pp. 164 - 169; J.H. Patton, "Cananite Pararllels in the book of Psalms". 1944; J.W. Jack, "The Ras-Shamra Tablets: bearning on the Old Testement", 1935.

(3) جرجى زيدان، " تاريخ الآداب العربية "، ج1، ص 26.

(4) الدكتور شلبى، " مقارنة الأديان "، ص 236.

(5) A. Clay, "Light on the Old Testament", P. 6.

عصور غابرة وأنها لم تسر من اليهود إلى العرب كما يظن[1].

ويقول نولدكه أن الختان كان معمولا به بين العرب عموما إذ كانوا يعتبرونه جزءا من طقوسهم الدينية والعمل به إجبارى، لذلك أصبح بعد ظهور الإسلام جزءا منه بصورة طبيعية [2] ويذهب أرمان إلى أن المصريين كانوا أول من سن الختان وكان ذلك حقا بقصد النظافة والطهارة على أنه أصبح كذلك عادة للكهان ولم يكن يسمح بأدائه لأبناء أسرهم إلا بإذن من الكاهن الأعلى، وكان ذلك فقط عندما كان يثبت قدماء الكهنة أن الصبى يخلو من أية علامة تجعله غير صالح لأن يكون كاهنا. ومن عاداتهم أيضا نفورهم من الخنازير [3].

وكذلك قدم الأستاذ ماير شواهد على أن الفينيقيين كانوا يمارسون الختان [4]. ومما ذكر أيضا في هذا الخصوص أن الختان كان يستعمل في فلسطين من قبل أقوام غير اليهود في القرن الأول والثانى بعد الميلاد [5]. وقد اعتبر الختان بحسب مآثر التوراة علامة العهد بين الرب وبين إبراهيم [6]، وقد جعلت عقوبة من لا يختن الموت لأنه نكث للعهد [7]، وقد عملت صفورة زوجة موسى المديانية بهذه الطقوس بالنسبة لابنها [8]، وتشير التوراة أيضا أن أتباع موسى بعد أن قضوا أربعين سنة في القفر قام يشوع يختن جميع الذين ولدوا خلال هذه الفترة [9].

ومن العادات التي كان يمارسها البابليون أمام آلهتهم وأخذها اليهود عنهم تقديم اثنى عشر قرصا من الخبز أمام الرب كما ورد في فرائض التوراة [10]. ومثل ذلك حرق كبد ذبيحة الخطية والكليتين مع الشحم على المذبح كما أمر الرب

---

(1) الدكتور إسرائيل ولفنسون، " تاريخ اليهود في بلاد العرب "، 1927، ص 78.
(2) The Noldeke, "Rncy of Religions and Ethics", Vol. I, P. 669.
(3) إرمان، " ديانة مصر القديمة "، ص 376، 444.
(4) S.H. Hooke, "The Origins of Early Semitic Ritual", PP. 62 - 63.
(5) "The Story of the Bible", Vol. II, P. 932.
(6) (تك، 17: 10 - 13)، راجع أيضا (خر، 12: 43 - 48)، (لا، 12: 3)، (تث، 10: 16).
(7) (تك، 17: 14).
(8) (خر، 4: 25 - 26)؛ (يش، 5: 3).
(9) (يش، 5: 2 - 9).
(10) (لا، 24: 5)، راجع أيضا (خر، 39: 36، 40: 23).

موسى تطبيقه كان البابليون والمصريون يمارسونه من قبل أيضا. ومن التقاليد الأخرى التي أخذها اليهود عن الأقدمين تعيين حصة الكهنة من الذبائح [1] ورش دم الذبيحة على عتبة الباب، فكان البابليون يمارسون العادة الأخيرة على عتبات قصورهم وعلى الأنصاب على طرفى المداخل، أما اليهود فكانوا يمارسونها في عيد الفصح[2].

ويقول البروفسور ووترمان في هذا الصدد: " لقد أصبح من المسلم به الآن أن جميع الأعياد اليهودية ماعدا عيد الفصح كانت بالأصل من الطقوس الدينية في كنعان وأن شرح طريقة تطبيقها ومراعاتها يكون مجموعة من الشرائع لنا كل الحق أن نعتبرها أساسا من عهود ما قبل إسرائيل " [3] كما يقول الأستاذ ريك " أن اليهود لا يزالون يحتفظون ببقايا كنعانية من طقس أدونيس وذلك في عيد المظال (السكوت) " [4].

17 ـ المدونات التوراتية كنعانية وبابلية ومصرية الأصل:

وقد ذهب بعض الآثاريين المعروفين إلى أبعد مما تقدم، فصار هؤلاء يطلقون على الشريعة التوراتية اسم الشريعة الكنعانية باعتبارها شريعة واحدة، فيشير الأستاذ أولمستد الخبير في تاريخ فلسطين القديم إلى " أن الكنعانيين وضعوا أول شريعة في شكيم (نابلس حاليا) التي تعتبر عاصمة الكنعانيين في فلسطين في تلك العصور ومركزهم الدينى الرئيسى المقدس حيث كان هيكل إلههم " بعل " هناك.

ثم يضيف قوله: " والفضل يرجع إلى حمورابى وشريعته في حمل الكنعانيين على إعادة النظر في شريعتهم الأولى وتنسيقها من جديد بإضافة بعض التعديلات

(1) (تث، 18: 2) راجع أيضا (لا، 7: 31 - 34).
(2) الأستاذ ريك، " الطقوس الوثنية في الديانة اليهودية "، ص 5.
(3) A.Clay, op. cit, pp 10 - 12 L.Waterman, "Pre-Israelite Laws in the book of the Convenant"; AJSLL, Vol. 38. 1921 - 22, pp. 36 - 37.
(4) الأستاذ ريك، " الطقوس الوثنية في الديانة اليهودية "، ص 5.
الدكتور سامى سعيد الأحمد، " الأسس التاريخية للعقيدة اليهودية "، ص 21.

عليها وحذف البعض الآخر منها وجعلها شريعتهم الخاصة بهم، وهى نفس الشريعة التي جاءت في التوراة وقد حافظ عليها اليهود بإدخالها في كتبهم المقدسة فوصلت إلينا عن طريق ممارستهم الفرائض التي وردت فيها [1] ".

ويؤيد ذلك الأستاذ ووترمن فيقول: " وهكذا فإن بنى إسرائيل (الموسويين) وجدوا شرائع معدة ومهيأة فعملوا بها في مسيرة حياتهم في كنعان "، ثم يضيف مؤكدا: " أن التحقيقات الأركيولوجية التي يمكن أن تزودنا بمعلومات في هذه الناحية لا تعترف بوجود أى فاصل ثقافى بين الكنعانية واليهودية " [2].

ويؤكد ذلك الأستاذ كوجنبرت بما يؤدى إلى نفس المعنى فيقول: " لقد ثبت الآن أن دين العبرانيين (بمعنى اليهود) لا يمكن أن يكون تطور ونما محليا، بل كانت عناصره الجوهرية قد استيقت من آراء كانت متراكمة ومن معتقدات كانت شائعة بين الأقوام السامية في الشرق... وأن هذه الوثائق القديمة تبرهن، بما لا يتطرق إليه الشك، على أن انعزال الديانة اليهودية عن غيرها في الزمن القديم لم يكن سوى خرافة بحتة ".

ويقرر ول ديورانت " أن أساطير الجزيرة العربية كانت المعين الغزير الذي أخذت منه قصص الخلق والغواية والطوفان التي يرجع عهدها في تلك البلاد إلى ثلاث آلاف سنة أو نحوها قبل الميلاد.. ولعل اليهود قد أخذوا بعضها من الأدب البابلى في أثناء أسرهم، ولكن أرجح من هذا أنهم أخذوها قبل ذلك العهد بزمن طويل من مصادر سامية وسومرية قديمة كانت منتشرة في جميع بلاد الشرق الأدنى ".

ويقول ديورانت كذلك: " أن القصص الشعبية العالمية كانت مصدرا من المصادر التي اقتبس منها كتاب أسفار العهد القديم، فقد كان شائعا في مصر والهند والتبت وبابل وبلاد الفرس واليونان والمكسيك وغيرها من البلاد، قصص شعبية عن الجنة وما فيها من نعيم، وما فيها كذلك من الأشجار المحرمة والأفاعى التي سلبت الناس الخلود أو نفثت السم في الجنة... أما قصة الطوفان فهى أكثر انتشارا من قصة الخلق نفسها، فلا يكاد يوجد في الأمم القديمة أمة لم تعرفها، وقلما وجد جيل في آسيا لم يرس عليه راكب السفينة الذي قدر له أن

(1) A.T Olmetead. "History of Palestine and Syria", pp. 106 - 107.
(2) L. Waterman, "Pre-Israelite Laws in the book of the Convenant" AJSLL, Vol. 38, 192 - 22, pp. 37, 54.

ينجو من الطوفان، وكانت الأسفار التي تليت على الشعب بأمر يوشيا وعزرا هى التي صيغت منها القوانين التي قامت عليها الحياة اليهودية كلها فيما بعد " (1)، ويمضى ديورانت فيقول: " وكانت معظم الآداب المصرية الأولى آدابا دينية، وأقدم العقائد المصرية ترانيم نصوص الأهرام، وقد أخذ الشعراء العبرانيون عن المصريين والبابليين هذه الطريقة وخلدوها في المزامير " (2).

ويؤكد العلامة بريستد " أن التوراة الحالية تحتوى على اقتباسات من الأدب الفرعونى المصرى القديم.. وأن مزامير داود أخذت الكثير من أناشيد أخناتون، كما ورد في سفر الأمثال الكثير مما كتبه الحكيم المصرى " أمينمنوبى " وفى وصاياه لابنه وهو يورد في كتابه عددا من المقابلات بين الكتابين، وفى ذلك يقول: " إن جميع العلماء بكتاب العهد القديم الذين يعتد بآرائهم وأبحاثهم فيه يجزمون الآن بأن محتويات ذلك الجزء الذي يؤلف نحو فصل ونصف فصل من كتاب الأمثال قد أخذ معظمه بالنص عن حكم الحكيم المصرى القديم أمينمنوبى، أى أن النسخة العبرانية هى تقريبا ترجمة حرفية عن الأصل الهيروغليفى العتيق. ولذلك صار من الواضح أيضا أن حكم " أمينمنوبى " شائعة في مواضع عدة من كتاب العهد القديم حيث نراها مصدرا لتلك الأفكار والتشبيهات والمقاييس الخلقية لا في كتاب الأمثال وحسب بل وفى القوانين العبرانية وفى سفر أيوب وفى سفر شاؤول وإرميا أيضا. إن الأبحاث والكشوف والأخيرة قد غيرت موقفنا تغييرا جوهريا حيث صار لدينا الآن الأصل الهيروغليفى الذي ترجمت ونشرت فقرات كاملة برمتها في كتاب العهد القديم العبرانى، فقد تعرف هوجو جرسمان بلا تردد على المنهل المصرى الذي استقى منه المزمور 104 الذي انحدر إلى فلسطين على ما يعتقد عن طريق فينيقية " (3).

وفى تعليق للأستاذ كرايمر خبير الآثار السومرية حول تأثير الآداب السومرية على الآداب التوراتية وغيرها من الآداب اللاحقة يقول: " لقد كان للأدب السومرى تأثير كبير على أوسع المجالات الروحية في الآداب التوراتية التي تؤلف المبتكرات الأدبية عند العبرانيين، وكذلك الإلياذة والأدويسة وهما الملحمتان الزاخرتان بالقصص الأسطورية الملحمية الإغريقية، و (الركفيدا) التي

(1) " قصة الحضارة "، الترجمة العربية، ج2، م1، ص 368 - 370.
(2) المرجع السابق، ص 113.
(3) بريستد، " فجر الضمير "، ص 394، 397.

تمثل النتاج الأدبى عند قدامى الهنود، كل هذه المجموعات والتآليف الأدبية لم تكتب في صيغتها الحالية قبل النصف الأول من الألف الأولى قبل الميلاد في حين أن أدبنا السومرى المدون على الألواح يعود تاريخه إلى ما يقرب من ألفى سنة قبل الميلاد، أى أنه أقدم من تلك الآداب بما يزيد على ألفى سنة، يضاف إلى ذلك فرق حيوى آخر وهو أن نصوص التوراة والإلياذة والأوديسة والريكفيدا والأفستا (الإبستان) كما هى بأشكالها الحالية قد طرأ عليها التعديل والتحوير والحذف والتنقيح من قبل جامعى هذه المواد لشتى الأغراض والدوافع ووجهات النظر ولم يكن أدبنا السومرى كذلك إذ أنه لا يزال محتفظا بنصه الأصلى الذي كتبه الكتاب القدامى منذ أربعة آلاف سنة دون ما تحوير أو حذف أو تعديل، ولهذا السبب نستطيع القول جازمين بأن القيمة الأساسية للأدب السومرى وأهميته الحقيقية بالنسبة للدراسات الإنسانية المتصلة به قد أصبحت واضحة وجلية " (1)

18 ـ حضارة اليهود المزعومة:

ومن الثابت أن موسى دخل فلسطين وأكثر أتباعه من الأميين لا يملكون أى قسط من الحضارة والثقافة، فاقتبسوا من الكنعانيين لغتهم وآدابهم وثقافتهم، وقد مرت عليهم فترة من الزمن تمكنوا خلالها أن يتوصلوا على تدوين كتاباتهم الخاصة بهم بحروف هجائية اقتبسوها من الكنعانيين (الفينيقيين). ثم أخذوا يمارسون الزراعة والأعمال الأخرى المتصلة بالحياة المستقرة عن الكنعانيين أيضا. وقد تأثروا بالديانة الكنعانية وقلدوا الكنعانيين في طقوسهم وشعائرهم الدينية وخاصة فيما يتعلق بالخصب والغلة والتذرع إلى الآلهة الكنعانية وفى مقدمتهم الإله " بعل " الذي كان أشعر الآلهة في بلاد العرب، إذ كان اليهود يمارسون الشعائر الخاصة بتقديم القرابين والعطايا، وهى عادة قديمة عامة متبعة في جميع الشرق الأدنى. ومن ذلك يتضح أنه لم يكن لليهود أية مساهمة في تقدم الحضارة الإنسانية وأن أكثر مدوناتهم الدينية وغير الدينية مأخوذة عن الثقافات القديمة وعن النصوص الأدبية والدينية من عهود السومريين والكنعانيين والفينيقيين والأكديين والبابليين والأشوريين والكلدانيين والمصريين. ومجمل القول أن الموسويين تسلموا حضارة لم تكن من إبداعهم بل كانت من نتاج غيرهم ويعترف بذلك الدكتور إسرائيل ولفنسون، وهو يهودى، إذ يقول: " أن يهود بلاد العرب لم يظهروا شيئا من النبوغ والعبقرية مطلقا ولم يشتهر من

(1) كرايمر، " الأساطير السومرية "، الترجمة العربية، ص 43 - 44.

بينهم شخصية واحدة في كل عصورها بالرقى الفكرى [1] ولكنه يعلل ذلك بقوله أن البيئة الجديدة شلت قوى اليهود الروحانية فتغلبت عليهم العقلية البدوية، وهذا التعليل غير وارد لأن البيئة الجديدة لا يمكن أن تشل القوى الروحانية بل على العكس من ذلك فهى تغذى القوى الروحانية.

ويؤكد العلامة الدكتور غوستاف لوبون هذه الحقيقة فيقول: " لم يكن لليهود فنون ولا علوم ولا صناعة ولا أى شئ تقوم به حضارة، واليهود لم يأتوا قط بأية مساعدة مهما صغرت في إشادة المعارف البشرية، واليهود لم يجاوزوا قط الأمم شبه المتوحشة التي ليس لها تاريخ " [2].

ويقول العلامة بريستد تأييدا لذلك: " إن بنى إسرائيل (قوم موسى) عندما جاؤوا إلى بلاد كنعان كانت المدن الكنعانية ذات حضارة قديمة نشأت منذ ألف وخمسمائة سنة ومنازل متقنة فيها كثير من أسباب الراحة وحكومة وصناعة وتجارة وعلم ومعرفة بالكتابة وديانة حضارة، اقتبسها هؤلاء العبرانيون (الموسيون) الساذجون من مواطنهم، وقد أحدث الامتزاج مع الكنعانيين تغييرات جوهرية في حياة العبرانيين (الموسويين) فغادر بعضهم سكنى الخيام وشرعوا يبتنون بيوتا كبيوت الكنعانيين وخلعوا عنهم الجلود التي كانوا يلبسونها في البادية ولبسوا عوضا عنها الثياب الكنعانية المصنوعة من منسوجات صوفية زاهية " [3].

ويضيف بريستد ما يشير إلى نفس المعنى قوله: " لقد كانت بعض العناصر الهامة في المدينتين البابلية والمصرية القديمة عاملا جوهريا في تكييف الحياة والثقافة في مدن الساحل الفينيقى الزاهرة التي كانت تتألف منها المراكز التجارية الفينيقية.. وأما في بلاد فلسطين التي دخلها العبرانيون (الموسويون) فيما بعد، فإن الكنعانيين الذين كانوا يسكنون هذه البلاد قبل العبرانيين، كانوا قد اجتازوا مرحلة من النمو المتحضر تبلغ أكثر من ألف سنة حينما غزا العبرانيون البلاد.

" وقد عرفنا من النقوش التاريخية البابلية والمصرية القديمة وكذلك من الحفائر الأثرية، شيئا كثيرا عن هذه المدنية الفلسطينية الراقية النامية السابقة لعهد العبرانيين، كما أنه كان للثقافة البابلية أثر هام خالد في فلسطين الكنعانية، وعن

(1) " تاريخ اليهود في بلاد العرب "، ص 12.
(2) غوستاف لوبون، " اليهود في تاريخ الحضارات الأولى "..
(3) بريستد، " العصور القديمة "، الترجمة العربية، بيروت، 1926، ص 55.

طريق الكنعانيين - بوجه خاص - وصل أثر البابليين في الفن والأدب والدين إلى العبرانيين، يضاف إلى ذلك أن هذا الإقليم كان منذ زمن بعيد واقعا تحت نفوذ الحضارة المصرية القديمة. فقد بدأ المصريون يبسطون سيطرتهم على الساحل الفينيقى قبل أن يطأ العبرانيون فلسطين بأكثر من ألفى سنة، إذ اقتحمت الجيوش المصرية فلسطين قبل سنة 2500ق.م، ولما فتح الفراعنة المصريون آسيا الغربية ووصلوا في فتوحهم إلى نهر الفرات في خلال القرن السادس عشر ق.م، بقيت فلسطين مستعمرة في أيديهم أكثر من أربعة قرون، والواقع أنهم حكموا فلسطين مدة قرنين بعد دخول العبرانيين فيها، وبذلك بلغت المدنية الكنعانية مرتبة سامية في القرون التي احتلتها فيها مصر. فلما غزاها العبرانيون كانت قد صبغت مرارا وتكرارا بالعناصر المصرية... والواقع الذي لا شك فيه أن اللغة التي وجدها العبرانيون الفاتحون، وهى اللغة الكنعانية، لغة البلاد وقتئذ، قد اتخذها العبرانيون أنفسهم لغة لهم، وهى التي انحدرت إلينا فيما بعد في ثوب اللغة العبرانية التي كتبت بها التوراة " [1].

وكتب المرحوم العقاد بأسلوبه الأدبى الرائع في هذا الموضوع، حيث يقول: " إن بنى إسرائيل [2] قبيلة لم تتطور، وقد ظلت بين البادية والحاضرة، قبيلة لم تستوف أطوار البادية ولم تتحول إلى أطوار الحضارة شعبا (مدنيا) يتمشى مع الحياة المدنية على سنة جميع الشعوب، ولازمتها عادة المعيشة على السمسرة والوساطة فلم تتقدم إلى آخر الشوط في تثمير أعمال البدو ولا في تثمير أعمال الحضر، فهى في حالة العزلة الاجتماعية وما يلازمها عند البدو من عزلة العصبية بالدم والسلالة " [3].

ولم يقتصر تأثر اليهود في الحضارة الكنعانية على الدين والأدب بل شمل الناحية العمرانية الفنية أيضا، فيقول الأستاذ طه باقر في ذلك: " أن هيكل سليمان المشهور لم يقتصر على أن بنائية كانوا من (صور) بل أنه بنى بموجب تصميم معبد كنعانى، وكذلك يقال في زخرفته وتزويقه، وهكذا كانت قصور ملوكهم في أورشليم "، وأن كلمة " هيكل " أخذها اليهود من كلمة " هياكل " الكنعانية [4].

(1) بريستد، " فجر الضمير "، ص 372 - 373.
(2) وهو يسمى أتباع موسى ببنى إسرائيل مجاراة للتوراة.
(3) " الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين "، ص 56.
(4) طه باقر، " مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة "، ج2، ص 300 - 301.

19 ـ ملاحظات ختامية:

نستخلص مما تقدم: أن شريعة التوراة التي دونها الكهان اليهود في فلسطين وفى بابل لا تخرج عن نطاق الشرائع البداية القديمة التي كان يعمل بها أقوام تلك العصور وقد اقتبسوها منهم وهى لا تصلح لغير أزمان تلك المجتمعات البدائية. ومما لا شك فيه أن مدونى التوراة الذين دونوا أكثر موادها في الأسر في بابل في عهد الكلدانيين كانوا محيطين بالمدونات القديمة التي كانت في متناول أيديهم وكانوا يحسنون جميع لهجاتها السامية وحتى اللغة السومرية وكذلك الهيروغليفية، ومن الثابت أنهم اقتبسوا الكثير من هذه المدونات التي لم نعثر حتى الآن إلا على جزء يسير ويسير جدا منها بين الأنقاض. وهذا كله يدل على أنه ليس فيما دون في التوراة أدب مبتكر خاص باليهود لأن أهم ما ورد فيها مقتبس من مدونات سبقتها كان رجال الدين من اليهود محيطين بها ولم يصل إلينا منها إلا النزر اليسير كما ذكرنا. لذلك فإذا كان لليهود فضل على الحضارة فهو ينحصر بمحافظتهم بوجه خاص على جانب من ثقافة الكنعانيين العرب وآدابهم الدينية وجغرافية بلادهم وذلك باقتباسها وضمها إلى كتبهم المقدسة ثم نقلها إلينا عبر الزمن الطويل.

ومن الغريب حقا بعد كل هذا أن أكثر الكتاب الأجانب عندما يتطرقون إلى التشابه بين المدونات الآثارية وبين كتابات التوراة فإنهم بدلا من أن يعترفوا صراحة أن الثانية مقتبسة عن الأولى يحورون التعبير فيقولون أن المدونات الآثارية جاءت مؤيدة لما ورد في التوراة، وكأنهم بذلك يريدون أن يعتبروا كتابات التوراة هى القديمة وأن المدونات الآثارية جاءت مؤيدة لها، وهذا لا يخلو من المغالطة التي تجعل الباحث يحتار في أمره، هل أن التوراة هى الأقدم أم المدونات الآثارية؟

وقد سار الكتاب على هذا النهج في بحثهم عن اللغة العبرية فلم يستطيعوا التخلص من تأثير الكتابات الأجنبية التي تدخل العبرية (بمعنى اليهودية) في كل مكان وفى كل زمان: أن المعلوم في الأوساط التاريخية أن الكنعانية هى للغة الأصلية القديمة التي كانت سائدة في فلسطين قبل مجئ موسى وأتباعه بعدة قرون وقد اقتبسها الموسويون من الكنعانيين، ثم تكونت بعد ذلك اللهجة العبرية المقتبسة من الأرامية بعد مرور أكثر من خمسمائة عام على دخولهم أرض فلسطين. ولكن على الرغم من اعتراف الاختصاصيين بعدم وجود أية لغة عبرية (بمعنى

يهودية) في فلسطين غير الكنعانية في تلك العصور، يعودون فيطلقون على الكنعانية تسمية " عبرانية التوراة " (العبرية القديمة).

فيقول الأستاذ الإبراشى مثلا: " يتضح أن العبرية القديمة نشأت في فلسطين حتى قبل مهاجرة الإسرائيليين (الموسويون) إلى كنعان " [1]. فإذا كانت هذه اللغة نشأت قبل ظهور موسى وأتباعه فكيف يطلق عليها اسم العبرية (بمعنى اليهودية) قبل أن يكون قد وجد اليهود في كنعان!.

ومثل ذلك يعتبر المطران يوسف الدبس " اللغة الموآبية فرعا من اللغة العبرية (اليهودية) [2]، ففى مجرى حديثه عن مسلة ميشاع ملك وآب التي أقامها بمناسبة انتصاره على ملك إسرائيل في حوالى منتصف القرن التاسع قبل الميلاد يقول: " إن النص الوارد على هذه المسلة، هو باللغة الموآبية وبالحروف الأبجدية الفينيقية يمكن رد كل كلماته إلى أصل عبرانى (يهودى) [3]، وهنا نقف لنسأل " أية من اللغتين كانت الأقدم!، هل كانت الموآبية أم العبرية بمعنى اليهودية!، فمن المعلوم أن الموآبيين والكنعانيين كانوا سكان فلسطين الأصليين وقد كون الموآبيون مثل الكنعانيين حضارة خاصة بهم وكانت لهم حكومات وملوك استمرت عدة قرون قبل عصر موسى واليهود وقبل أن تتكون اللغة العبرانية (اليهودية) المقتبسة من اللغة الأرامية بأكثر من ألف عام، فيكف يمكن أن تكون اللغة الموآبية والحالة هذه فرعا من العبرانية أى اليهودية؟! ثم بدلا من أن يقال أن اللغة العبرية تشبه اللغة الكنعانية باعتبارها اللغة الأقدم يذكرون أن الكنعانية تشبه العبرانية مما يوهم القارئ ويجعله يتصور أن العبرية هى الأقدم، بل أنهم ذهبوا أبعد من ذلك بحيث اعتبروا اللغة العبرية (بمعنى اليهودية) أصلا لكل الكتابات السامية الأخرى، ولكن كيف يمكن التوفيق بين هذا الادعاء ووجود الكنعانيين في فلسطين قبل موسى واليهود بأكثر من ألفى عام؟..

يقول الأستاذ أولينارى في تعليقه على ذلك: " وقد دفع التحيز اللاهوتى باليهود لأن يعتبروا اللغة العبرية (بمعنى اليهودية) هى اللغة الأم، ليس فقط اللغتين الأرامية والعربية ولكن لجميع اللغات كذلك " [4].

---

(1) الإبراشى، " الآداب السامية "..

(2) المطران يوسف الدبس، " تاريخ سورية "، ج1، م 2.

(3) " نفس المصدر السابق "، ص 7.

(4) أولينارى، " القواعد المقارنة للغات السامية "، ص1.

ويعترف الدكتور ولفنسون وهو كاتب يهودى " أن الأحبار اليهود كانوا منذ العصور القديمة يعتبرون أن اللغة العبرية (اليهودية) هى أقدم لغة في العالم، وسرت هذه العقيدة من اليهود إلى غيرهم من الباحثين حتى أن العرب في القرون الوسطى كانوا يعتقدونها " [1]. وعلى هذا الأساس فقد اعتبرت أقدم الكتابات التي عثر عليها في فلسطين، وهى كتابة تقويم جازر التي ترجع إلى القرن العاشر قبل الميلاد وكتابة نبع عين سلوان في القدس التي ترجع إلى عهد اليبوسيين سكان القدس الأصليين وغيرهما من الكتابات القديمة ككتابة شكيم ولخيش، نماذج من الكتابة العبرية القديمة أى اليهودية. إلا أن دايرنجر الخبير في تاريخ الكتابة يقول: " إنه من المستحسن أن تسمى هذه الكتابات بالكتابة الكنعانية القديمة " [2].

ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن محطة إذاعة لندن العربية كانت قد أذاعت مساء يوم 22 شباط 1971 خبرا مفاده أن المنقبين توصلوا إلى اكتشاف هام، هو العثور على مخطوطات في الخليل بلغة سكان فلسطين الأصليين ترجع إلى سنة 700ق.م، وتقول الإذاعة أن هذا ما يؤيد أن اللغة العبرية أى اليهودية متأخرة وأن المتكلمين بها أقلية في حين أن لغة سكان فلسطين الأصليين هى التي كانت سائدة في البلاد وتعد أقدم اللغات في فلسطين، وهذه العبارة نسمعها لأول مرة من جهة أجنبية وهى تعترف بالحقيقة أى أن اليهود كانوا غرباء طارئين على فلسطين وأقلية فيها وأن لغة سكان فلسطين الأصلية هى التي كانت سائدة في البلاد لا العبرية بمعنى اليهودية كما اعتاد الباحثون ترديد ذلك في جميع كتاباتهم.

ولم أدع أمر هذا الاكتشاف وما يترتب عليه من مفاهيم جديدة أن يمر من غير تعقيب وتحقيق، فاتصلت بمحطة الإذاعة البريطانية في لندن وطلبت المزيد من المعلومات عن هذا الاكتشاف، فأحالتنى المحطة إلى المكتشف العلامة " مندنهول " (G.E. Mendenhall) أستاذ لغات الشرق الأدنى في جامعة ميشيغان الأمريكية فاتصلت به على الفور، وما أن تسلم رسالتى حتى أجابنى مشكورا على أسئلتى في كتاب مطول مؤرخ في 8 تموز 1971. ولما كان هذا الكتاب ماثلا للطبع فقد انتهزت هذه الفرصة لأضيف إلى ما تقدم العبارة التالية: يؤكد الأستاذ " مندنهول " بعد اعترافه بتعقيد هذا الموضوع وغموضه أن اللغة في عهد داود وسليمان

(1) ولفنسون، " اللغات السامية "، ص 7.
(2) دايرنجر، " الكتابة "، ص 118 - 119.

وفيما بعدهما هى اللهجة الكنعانية وذلك لأن النبى أشعيا سمى لغة ذلك العصر من تاريخ اليهود في القرن الثامن قبل الميلاد بـ " شفة كنعان " أى لسان كنعان [1]. والغريب أن " مندنهول " مع تأكيده بأن الكنعانية هى لغة ذلك العصر في فلسطين وأن الثقافة الكنعانية بما فيها الوثنية كانت هى السائدة آنذاك فهو لا يزال يعتبر هذه اللغة الكنعانية الخالصة " عبرانية التوراة (العهد القديم) ".

وبذلك يرجع العبرانية (أى اليهودية) والعهد القديم إلى عصر لم يكن لهما أى وجود فيه وذلك على النحو الذي ذهبت إليه التوراة التي تعتبر وجود اليهوديةو اللغة العبرية في جميع الأزمنة حتى قبل ظهور اليهود إلى عالم الوجود، وهذا هو نفس كلام الأستاذ الإبراشى الذي يعتبر نشوء " عبرية قديمة " (بمعنى يهودية) قبل ظهور اليهود.

ومما يذكر في هذا الصدد أن أول من بث هذه النظرية الوهمية الحاخامون والكهنة وانتقلت منهم إلى الكتاب اليهود فقبلها الناس دون تمحيص كما قبلوا نظرية إرجاع تاريخ اليهود إلى أزمان تسبق ظهورهم إلى عالم الوجود، ومن أمثال هؤلاء الكتاب: الكاتب اليهودى الدكتور إسرائيل ولفنسون، فهو يضرب على نفس الوتر على رغم اعترافه بأن الأحبار اليهود هم الذين نشروا هذه النظرية منذ أقدم العصور كما تقدم بيانه، نراه يقول مانصه: " ومع أنه قد وجدت أمم سامية قبل بنى إسرائيل بآلاف من السنين فإن الباحثين يرون في اللغة العبرية وآدابها مقياسا صالحا للبحث في جميع اللغات السامية (كذا)، لأن الذي وصل إلينا من آثار البابليين والأشوريين، والأراميين ضئيل جدا بالقياس إلى ما وصل إلينا من تراث بنى إسرائيل.. واللغة العبرية من أمهات اللغات السامية، فقد كانت شائعة قبل نشوء بنى إسرائيل وظهورهم في العالم (كذا)، إذ كانت لغة أهل فلسطين الكنعانية ولغة كثير من القبائل في طور سيناء وشرق الأردن، وكان من أهم تلك الأمم بنى أدوم وعمون وموآب وقبائل عماليقية ومديانية وإسماعيلية ثم ظهرت بطون بنى إسرائيل بين هذه الأقوام في طور سيناء وأطراف الحجاز وانتشرت منها إلى الأقاليم الأخرى وبقيت هذه اللغة صاحبة السلطان والنفوذ مدة طويلة (كذا) إلى أن ظهر تأثير إحدى اللهجات الكنعانية وهى الأرامية فأخذت اللهجات العبرية والكنعانية الأصلية تضمحل مع التغييرات السياسية إلى أن أصبحت أغلب بطون فلسطين وسورية والعراق وطور سيناء تتكلم باللهجات

(1) انظر ما تقدم عن ذلك في الفصل الثالث مادة " تاريخ التوراة مكان وزمان ظهورها "..

الأرامية " [1]. والغريب في ذلك أن أكثر الكتاب الإفرنج بل كلهم إطلاقا يأخذون بهذه الأقوال القائمة على اللف والدوران دون أن يقفوا لحظة ليسألوا أنفسهم: كيف يمكن أن تنسب اللغة الكنعانية القديمة إلى العبريين أى اليهود قبل أن يكون اليهود قد ظهروا إلى عالم الوجود؟

وإنه لمن المؤسف حقا أن نجد العلماء يتقبلون مثل هذه النظريات التي لا تستند إلى أى واقع تاريخى بل تنافى حدود المنطق والعقل السليم، فتقلب الصورة رأسا على عقب كمن يجعل قدم المرء في الأعلى ورأسه في الأسفل، وكتاب ولفنسون المذكور كان يدرس في مصر على الطلاب ومعترفا به كثقة باعتبار مؤلفه مختص باللغات السامية وقد أشرف عليه الدكتور طه حسين.

* * *

(1) ولفنسون، " تاريخ اليهود في بلاد العرب "، المقدمة، ص ز.